


تأليف

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

# تبصرة الطريق

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

الطبعة الأولى
١٤١٦هـ - ١٩٩٥م




بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - برقياً : اسلاميا - تلكس : ٤٠٥٠١ - هاتف : ٤٥٠٦٣٨
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٦٥٦٦٠٥ - فاكس : ٧٤٨٥٧٤

بسم الله الرحمن الرحيم

# المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله، محمد بن عبد الله، خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى إخوانه رسل الله، وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فإن المرء يتساءل عن أسباب إحجام الدول والأفراد عن الأخذ بشرع الله بل ردّه ورفضه ومحاربة من يتبنّى ذلك حرباً شعواء لا هوادة فيها، وتسخير الإمكانات كلها لهذه الحرب من أموالٍ وإعلام، وإذا كانت نفقات الأموال مخفيةً فإن وسائل الإعلامَ ظاهرة مكشوفة تُعلن الحرب ليلاً نهاراً على المسلمين الملتزمين بشرع الله، وتوجّه لهم مختلف التّهم، وفي الوقت نفسه يتعاون أصحاب القرارات على رسم المخططات لهذه الحرب، وعلى الاتفاقات السرية في محاولات لضرب أولئك المسلمين، ولا شك فإن هناك أحقاداً دفينةً تشحنها باستمرار بعض الجهات، وهناك مصالح وأهواء، وهناك رغبات وشهوات، وهناك حسداً وعصبياتٍ.

هذا مع العلم أن هؤلاء المحاربين يدّعون الاعتراف بالله رباً وبإرسال الرسل لهداية البشر، ولكن إذا كان هذا الاعتراف باللسان إلا أن القلوب مليئة بما يُخالف ذلك، وأن الأهواء قد أصمّت الآذان عن سماع كلمة الحقّ، فلم تعد تسمع إلا من القلب المليء بالحقد، المترع بالرغبات والشهوات، كما أعمت الأعين فلم تعد ترى إلا المصالح والمراكز، ولم يعد يرضيها إلا اللذائذ والمغريات، ولم يعجبها إلا المفاتن وتحقيق الأهواء، وتبعاً لهذه القلوب الغُلف، والآذان الصُّمّ، والعيون العمياء تكون الاستجابة وتكون هذه الحرب. ومع أن المسلمين ضعفاء، وهم أهل أمنٍ وسلامٍ لمن يريد ذلك وأهل سيفٍ وقوة لمن لا يفهم إلاّ بذلك.

أُعلنت الحرب صراحةً على المسلمين من الجهات كافةً ومن الجبهات عامةً، ومع ضعفهم فقد صمدوا، وصبروا، واحتسبوا فصعُب على الأعداء أن يروا هذا الصمود، رغم أنه أمر طبيعي فمن ذا الذي لا يدافع عن نفسه إذا اعتُدي عليه، ومن ذا الذي لا يثور إذا أُثير، ولا يغضب إذا أُهين، ولا يثأر إذا اغتُصب عرضه، أو انتُهب

ماله أو قُتل أهله، أو اعتُدي على حرماته. وكل هذا قد لحق بالمسلمين غير أن خصومهم يريدون منهم الاستسلام وإلا فهم إرهابيون ومتطرّفون وهذا ما يجري على الساحة اليوم.

والغرض من هذا الكتيب توضيح الأسباب التي تجعل الوحوش البشرية يردّون شرع الله، ويعتدون على المسلمين، ويشنّون عليهم حرباً، ويرتكبون بحقّهم أبشع الجرائم، ويطلبون منهم بعدها السكوت والاستسلام، وهذا لا يمكن أن تقبله أدنى المستويات البشرية. فالعنف لا يولّد إلا عنفاً، والضغط لا يمكن إلا أن يُؤدّي إلى انفجار، والاعتداءات لا يعقبها إلا ردّ فعلٍ.

نرجو من الله أن نُوفّق إلى توضيح معالم هذه التطورات التي تجري في ديار الإسلام، ومواطن الأقليات الإسلامية، وأن نبيّن أسباب ردّ شرع الله ومحاربة الذين يتمسكون به ويعملون لإعلائه. والله ولي التوفيق وهو نعم المولى ونعم النصير ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

٢٢/ ١٠/ ١٤١٥هـ

# الفصل الأول

## وحدة البشرية

يتفق أهل الأرض جميعاً في مختلف عصورهم منذ أن خلق الله البشر على هذا الكوكب إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ويُجمعون على اختلاف ألوانهم، وأجناسهم، ولغاتهم، ومِللهم ونِحلهم على أن الله سبحانه وتعالى هو خالقهم، وأنه هو الذي يُنهي حياتهم، بأخذ الروح التي أودعها في أجسادهم، وإن كان اللفظ يتباين حسب اللغات أو يفترق تبعاً للمِلل إلا أن المُؤدّى واحد. فأيّ إنسانٍ تسأله من أية جهةٍ على الأرض عن خالقه يُجيب: الله، حسب لغته ومفهومه. وإذا وُجدت فئة تُنكر هذا أو تدّعي غير ذلك فإنما هو مكابرة لإثبات الوجود، أو لتحقيق غرضٍ في هذه الدنيا، والوصول إلى هدفٍ معينٍ، وتبقى محافظةً على مكابرتها وإلحادها لأن في ذلك دوام بقائها قائمةً في مركزها، وتحقيق أغراضها من شهوةٍ وتسلّطٍ. ولكنها لا تلبث أن تزول وتنتهي لرغبة المسحوقين بالتخلّص من الجور الذي لحق بهم والضغط الذي نزل عليهم فيتحرّكون بعنفٍ أقوى من الشدّة التي

تعمل على قهرهم وسحقهم. وقد ظهرت جماعات مختلفة في مراحل التاريخ حملت الفكر الشيوعي ثم انتهت، وإن كان بعضها قد دعا وتبنّى جانباً معيناً من الشيوعية كالقرامطة مثلاً الذين دعوا إلى شيوعية الجنس، وشيوعية المال. وعلى كلٍ فهذه الفئات محدودة العدد بل وشاذّة، ولو كانت قد سيطرت في مرحلةٍ من مراحل التاريخ على مساحاتٍ واسعةٍ من اليابسة، وكان لها شأنها وبأسها، وكان لها نفوذها وجبروتها، وكانت لها هيمنتها وقوتها، تخشاها الدول الكبرى، وتخافها الإمبراطوريات الواسعة، وتهابها الجيوش والأحلاف، وترهبها الشعوب والأمم، ويدبّ الرعب في نفوس الأفراد والجماعات الصغيرة التي تخضع لها بالقوة من أن تغضب عليها فتتعرّض للإبادة، ولكن لم تلبث أن تفككت وانهارت لأنها تقوم على فكرة تُخالف الفطرة البشرية، ولا تقبلها العقول السليمة. كما أن هذه الفكرة لم تكن عامةً لدى كل من يخضع إليها أو يتبعها أو يُنادي بما تدعو إليه من آراءٍ، وإنما لدى فئةٍ قليلةٍ لها مهمة تخريبية كنسفٍ للعقائد لأهدافٍ خاصةٍ، أو لها أغراض سياسية تسعى وراءها فتتخذ من شعاراتها شركاً لإيجاد المطايا لها من أولئك المغفّلين الذين أضناهم التعب في العمل، وسحقهم الجوع فأعمى أعينهم وأصمّ آذانهم عن الحقّ فانطلقوا وراء كل ناعقٍ، وقد مُلئوا كرهاً للآخرين وشُحنوا حقداً فثاروا

يُهدّمون ويُحطّمون، فسيطر بهم أصحاب الأغراض، وأخضعوا الناس لسلطانهم، وادّعوا أنْ جميع من خضع لهم يُؤمن بأفكارهم، ويحمل عقيدتهم.

## المنهج:

ولما كان الله هو الخالق وحده وذلك باعتراف البشر جميعاً وبإقرارهم فهو وحده الذي يعرف ما يصلح لخلقه، وقد وضع لهم المنهج ليسيروا عليه من أجل سعادتهم، وكل منهج غير منهج الله لا يصلح بل يُسبّب اختلالاً في المجتمعاتِ، ويُؤدّي إلى مفاسد واضطراباتٍ في سير البشرية وعمران الأرض إذ الخالق وحده هو الذي يعرف آلية سير خلقه، وحركية المجتمعات، وما تحتاج إليه، كما يعرف المهندس المبتكر لآلة طبيعة صنعها، وطريقة عملها، وكيفية حركتها، وما تحتاج إليه، وما قد يُصيبها من أعطالٍ، وأسلوب إصلاحها، مع فارق التشبيه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾[1]. وأما غير الخالق فلا يعلم شيئاً عن

---

(١) البقرة: ٢٦.

تلك المخلوقات مهما كانت صغيرةً أو مهما كانت بسيطة الخلق والتركيب حسب تصوّر الضالين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾[1].

ولفت الله نظر مخلوقاته إلى عظمة عملية الخلق اعتباراً وتبصرةً ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾[2]. ويقول سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾[3]. ويقول: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾[4]. ويقول: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾

---

(١) الحج: ٧٣ ـ ٧٤.
(٢) الواقعة: ٥٧ ـ ٦٢.
(٣) القيامة: ٣٧ ـ ٤٠.
(٤) الإنسان: ١، ٢.

فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾[1]. ويقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾[2].

ويُبيّن الله للناس دقّة أجهزة خلقه من سمعٍ وبصرٍ، وقلبٍ، وأعصابٍ، ودماغ، والروح التي تجري في تلك الأجهزة و. . . ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾[3]. ويقول سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾[4].

ويطلب الله من البشر أن ينظروا في خلق الكون وما

---

(١) المرسلات: ٢٠ ـ ٢٣. (٢) الحج: ٥ ـ ٧.
(٣) النحل: ٧٨. (٤) الملك: ٢٣، ٢٤.

فيه من آياتٍ، وما فيه عبرةٍ وعظةٍ ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾[1]. ويقول: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾[2].

ويدعو الخلق للسير في الأرض والتأمّل في آثار الأمم التي أتاها العذاب نتيجة إنكارها دعوة رسل الله ليقف الناس على الحقيقة، وليعلموا علم اليقين عاقبة أمرهم ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾[3].

ونتيجة التفكير في عظمة الأرض والإنسان ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾[4]. ونتيجة النظر في الكون وما فيه من آيات يطمئن صاحب العقل السليم، ويُؤمن إيمانياً يقينياً بوجود الخالق، ويستسلم لأمره، ويقبل ما يرسم له من منهجٍ.

ولما كان الله سبحانه وتعالى هو خالق البشر جميعاً على تباين ألوانهم، وأجناسهم، وأُممهم، ومواقعهم على الأرض، وعلى مختلف مراحل التاريخ لذا كان أيضاً

---

(١) آل عمران: ١٩٠.
(٢) يونس: ١٠١.
(٣) آل عمران: ١٣٧، ١٣٨.
(٤) الذاريات: ٢٠، ٢١.

منهجه لهم جميعاً في كل زمانٍ وفي كل مكانٍ.

خلق الله الإنسان، وسخّر له ما في الأرض وما في السماوات، وأسبغ عليه نعمه ظاهرةً وباطنة، وأرشده إلى نهج يسير عليه ليُمكنه أن يتفاعل مع الكون الواسع الذي يُحيط، وكي يتعامل بنو الإنسان بعضهم مع بعضٍ بل ومع بقية المخلوقات المسخّرة له ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٢٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٢١)﴾[١].

ويُنبّه الله سبحانه وتعالى البشر إلى أن ينظروا في السماوات والأرض ويُفكّروا بالنظام الدقيق الذي يسير عليه الكون لا تبديل فيه ولا اختلاف يمضي بدقةٍ متناهيةٍ على مدى الدهور، وذلك كله بمشيئة الله وحسب النظام الذي أراده الله لـــــه ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤)﴾[٢]. فما دام النظام من عند الله فهو دقيق تمام الدقة، يسير على

---

(١) لقمان: ٢٠، ٢١.    (٢) الملك: ٣، ٤.

أحسن ما يرام. وإذا اتبع البشر شرع الله عاشت المجتمعات في سعادةٍ وطمأنينةٍ، وبصورةٍ مُتوازنةٍ تمام التوازن فلا تمايز ولا طبقات، ولا تفاوت ولا صراعات. ولكن يحدث الاختلال في المجتمعات البشرية عندما تحيد عن شرع الله، وتتخذ لنفسها شرائع وقوانين تضعها من لدنها، وتتباهى بها أو تدّعي أنها تُحقّق لها السعادة، وما أن تمشي في غيّها مرحلةً حتى يبدو الخلل فيظهر الفساد، وتبرز الطبقات فتُتخم فئة، وتتضوّر أخرى، ويستبدّ القوي بالضعيف، ويستعبد الغني الفقير، ويُسخّره لمصالحه وشهواته، ويتحكّم المُتسلّط بالآخرين، ويتمرّغ بالرذيلة، ويرعى في أعراض الآخرين، ويتغطرس الطاغوت، وتنقلب الحياة البشرية إلى بهيميةٍ ذلك أن تلك القوانين قد وُضعت تبعاً لأهداف الطواغيت وحسب مصالح المتنفّذين، وهم غالباً من أصحاب الأموال الذين حصلوا عليها بالحرام، وحازوا عليها بالظلم، ومن أهل الشهوات. وكثيراً ما تتغيّر هذه القوانين بتغيّر المتسلّطين حيث تتبدّل مع تبدّل الأهواء. وإذا كانت ثابتةً في بعض المواطن فذلك لأن الذين يتعاقبون على السلطة إنما هم من نماذج واحدةٍ، ويحملون أفكاراً واحدةً، ولهم أهداف واحدة، وهذا ما نلاحظه في الدول التي تسير حسب المبادئ التي يُسمّونها حكم الشعب (الديمقراطية)، والحرية حيث يُعطون الحرية المطلقة فيُطلقون للناس

أعنتهم يتصرّفون كيف يشاءون فتكون حوادث الجنس والاغتصاب، والجرائم الأخلاقية، وتكون المؤامرات والجاسوسية، ويكون الاحتكار والربا، وتكون المتاجرة بالمخدرات وبالجنس وكلها حوادث منتشرة على نطاقٍ واسعٍ، وأكبر من أن نتحدّث عنها أو نذكر بعضها، ويرضى المتسلّطون عن هذا كله حيث ينالون حظّهم من المال والشهوة كما يريدون بل لهم من ذلك الحظ الأوفى. وإذا كان يحدث بعض الصراع فذلك حسب النظام القائم الذي يُسمّونه (ديمقراطية)، وذلك أن كل فريقٍ من الفئات المتصارعة يريد أن يحصل على السلطة لينال القدح المعلّى من زخرف الحياة الدنيا من مالٍ أو شهوةٍ ودون النظر طبعاً إلى فكرة الحلال والحرام لأن هذا غير واردٍ في المفاهيم التي يحملونها، والأعراف التي يسيرون عليها، والقوانين التي يضعونها. وتحت هذه الشعارات يعيش الناس وقد ألفوا هذا وأصبح جزءاً من حياتهم يُدافعون عنه، ويقبلون به رغم ما يجدون من مُنغّصاتٍ وجرائم تهزّ كيانهم أحياناً، ولكن لم يلبث الأمر أن يعود إلى طبيعته، وباختصار لا يجدون حرجاً فيما يجري من حوادث لا تقبلها الفطرة البشرية، إذ اعتادوا على ذلك، وربّوا أبناءهم على ذلك فمارسوا تلك الحياة البهيمية في وقتٍ مبكرٍ، وفي مقدمتها الزنا. وإذا كان يعيش في تلك المجتمعات بعض المسلمين أو الأسوياء

الذين عندهم شيء من طبائع الفطرة البشرية من مروءةٍ، أو شهامةٍ، أو نخوةٍ، أو شرفٍ أو هذه الاصطلاحات التي فُقدت هناك من المعاجم العصرية، فإنه لا أثر لهم، وقد اعتادوا الحياة، وقبلوا بذلك النظام الذي يُعطيهم الحرية في تصرّفاتهم، قبلوا ذلك رغبةً أو كُرهاً.

أما المنهج الربّاني فهو الملائم للفطرة البشرية المنسجم معها لأنه من شرع خالقها الذي برأها وصوّرها وشرع لها منهجها الذي يصلح لها، فلا يقدر على ذلك سوى الخالق فهو العليم وحده بأسرارها، وهو الخبير وحده بما تحتاج إليه وما ينسجم معها، ومهما وُضع من مناهج وتشريعاتٍ للإنسانية من قبل أبنائها فإنها لا تُؤدّي الغرض المطلوب، ولا بدّ من حدوث خللٍ ووقوع اختلالٍ عند التطبيق، وإن ظهرت الموافقة أحياناً لمرحلةٍ من الزمن إذ لا تكون هناك راحة نفسية، ولا تكون الطمأنينة المطلوبة، لأنها لا تُراعى تلك القوانين الموضوعة من قبل البشر الناس جميعاً بل لا بُدّ من أن تكون قد انطلقت من نفسية الواضعين، وخرجت حسب وجهة نظر مدّعي التشريع، وراعت مصلحة المتنفّذين، وسايرت هوى المتسلّطين. أما المنهج الربّاني فلا يُحابي أحداً من الخلق، ولا يجامل أهل عصرٍ، ولا يُساير هوى طاغيةٍ مهما عتا وتكبر، فهو شرع خالق الجميع، العارف بأسرارهم، الخبير بشؤونهم. لذا وحده الذي يصلح

للبشر لا سواه مهما بلغت المستويات العلمية لأولئك الذين يسنّون هذه القوانين الوضعية التي أفسدت العلاقات الاجتماعية بين الناس، وأساءت الصلات بين الأمم فكانت الصراعات والحروب.

## البلاغ:

لما كان الله سبحانه وتعالى قد شرع لخلقه من العباد المنهجَ الذي يجب أن يسيروا عليه كي تستقيم حياتهم، وليتمكّنوا من أداء مُهمّتهم في إعمار الأرض، ولما كان ذلك، فلا بدّ أن يُبلّغ العباد هذا المنهج فاختار منهم من يقوم بهذه المُهمّة وهي إبلاغ البشر منهج خالقهم، والذين اختارهم هم رسله لخلقه.

ولمّا كانت مُهمّة الرسل إبلاغ منهج الله إلى خلقه وإبلاغهم أوامره لذا لا بدّ أن يكون الرسول منهم، وعلى علم تام ومعرفةٍ كاملةٍ بهذه المُهمّة وتأديتها وممارستها وتطبيقهَا، بل لا بدّ من أن يكون الأسوة الحسنة في الأداء والممارسة والتطبيق ليكون المثل الأعلى لأتباعه والذين يسيرون على دربه. كما لا بدّ أن يكون على صورةٍ شبه كاملةٍ من الصفات الخَلقية، والخُلقية، والاجتماعية، فلم يكن واحد من رسل الله مُشوّهاً من ناحيةٍ جسميةٍ، أو مُعاقاً كي لا يُغمز منه، أو يُسخر منه، أو يُعاب، أو يُتّهم بتعويض النقص، وما إلى ذلك ممّا قد

يقع. كما أن سلامة الجسم تكون عاملاً في سهولة الأداء ويُسر الإبلاغ. وإن الصفات الخُلقية العظيمة لها أثر في أن يكون الرسول القدوة الصالحة لأتباعه الذين يقبلون دعوته ويحملون معه عبئها، إضافةً إلى أنه لا يستطيع أحد من أعدائه والذين يقفون في وجه الدعوة أن ينالوا من خُلقه، أو يلمزوا منه لسببٍ سلوكي. ولذا فرسل الله وأنبياؤه كانوا من خيار الناس في مجتمعاتهم، ومن كرام الأسر، وعلية القوم كي لا يُتّهم أحد بنقص، أو يُعيّر بأهله وأقربائه، أو يُلمز بأصوله ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[1].

ولما كان البشر جميعاً عباد الله ومن خلقه، وكان تشريعه لهم كلهم، لذا كانت دعوة الرسل جميعاً واحدةً، تدعو إلى عبادة الله وتوحيده، والتزام منهجه، والابتعاد عن اتباع الأهواء. هذا مع العلم أن الرسل الذين بعثهم الله قبل رسوله محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، كانوا قد بُعثوا إلى أقوامهم فكل رسولٍ بعث إلى قوم مُعينٍ، يُخاطبهم بلغتهم ليفهموا ما يُبيّنه لهم ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٤﴾[2]. فكانت

---

(١) الأنعام: ١٢٤.
(٢) إبراهيم: ٤.

رسالات متعددة في لغاتٍ متعددةٍ، وإن كانت واحدة الفكرة والهدف، وهي من لدن حكيم خبير، ومع ذلك فدعوتهم كانت واحدةً في أصولها ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾[1]. ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾[2]. ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾[3]. ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾[4]. ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾﴾[5]. وأوحى الله إلى رسوله موسى قائلاً: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ

---

(١) الأعراف: ٥٩.
(٢) الأعراف: ٦٥.
(٣) الأعراف: ٧٣.
(٤) الأعراف: ٨٥.
(٥) العنكبوت: ١٦.

﴿إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾[1]. وقال على لسان عيسى ابن مريم: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٣٦﴾[2]. وبصورةٍ عامةٍ ما بعث الله من رسولٍ إلا أوحى إليه أنه لا إله إلا الله، وعلى المُوجَّه إليهم الخطاب أن يعبدوه ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾[3].

ومع دعوة رسل الله العامة إلى أقوامهم كانت هناك توجيهات أخرى إلى بعض الأقوام لما عُرف عنها من بعض المخالفات الأساسية التي لا تتفق ومنهج الله، فقوم لوطٍ قد عُرفوا مثلاً بارتكاب الفاحشة والشذوذ الجنسي، فكان على رسولهم أن يدعوهم إلى الطريق المستقيم، وترك ما هم عليه من أعمالٍ قذرةٍ لا تقبلها الفطرة البشرية ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٩﴾[4]. وعُرف قوم شعيب

---

(١) طه: ١٤.
(٢) مريم: ٣٦.
(٣) الأنبياء: ٢٥.
(٤) العنكبوت: ٢٨، ٢٩.

باللعب بالمكيال والميزان، وظلم الناس، وعدم إعطائهم حقهم، وقطع الطريق ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾[1].

## الإسلام:

ولما كان الله يبعث في كل قوم رسولاً، وكانت دعوة الرسل جميعاً واحدةً إلا في بعض الفروق الفرعية نتيجة سيادة بعض الأفعال في أقوام واختلافها عن الأقوام الآخرين، وهذا ما جعل عدة دعوات ومناهج في الأرض حسب رسل الله والأقوام التي بُعثوا إليها. ولما كانت البشرية واحدةً، وأبناؤها كلهم من خلق الله، لذا اقتضت حكمته سبحانه وتعالى أن يبعث رسولاً للناس كافةً، وأن يكون ما يوحي إليه إنما هو منهج للبشرية جمعاء أيضاً. وهذا ما كان من بعثة محمد بن عبدالله ﷺ، ورسالته حيث كانت للناس كافةً ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾[2].

---

(١) هود: ٨٤، ٨٥.    (٢) سبأ: ٢٨.

وكان لا بدّ لهذه الرسالة الخاتمة من أن تشمَل ما جاء في الرسالات السابقة ما دامت من لدن مصدرٍ واحدٍ هو الخالق، الحكيم الخبير، العالم وحده بشؤون عباده وما يصلح لهم، وما يحتاجون إليه. وستكون هذه الرسالة الخاتمة بلسان الرسول الذي بُعث أي بلسان القوم الذي ينتمي إليهم هذا الرسول ليُبيّن لقومه ما جاءهم من عند الله. وليُؤمن من هذا القوم من أراد الله له الهداية، ويُضِلّ من كُتبت عليه الضلالة، وليحمل من آمن من هذا القوم هذه الرسالة إلى العالم جميعاً، ويكونوا شهداء عليهم، ويكون الرسول عليهم شهيداً. وكان لا بدّ أن يكون من يُؤمن برسالة هذا النبي الخاتم سواء أكان من قومه الذين نزل منهج الرسالة التي جاء بها هذا النبي أم غير هذا القوم لا بد من أن يكونوا أمةً واحدةً إضافةً إلى من آمن برسالات الرسل السابقين فالله سبحانه وتعالى بعد أن يذكر عدداً من أنبيائه ورسله وأهل الصلاح والتقوى يقول: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾[1].

هذه الرسالة الخاتمة جامعة للرسالات السابقة بل وناسخة لها حيث كانت لأقوامٍ مُتفرّقين، ولبعض هذه

---

(١) الأنبياء: ٩٢.

الأقوام عادات خاصة مما يجعل شرعهم خاصاً، ويركّز على تلك العادات، كما أن بعض هذه الأقوام قد زال وانتهى أمره، ولا حاجة لما جاء إليه إضافةً إلى أن بعض هذه الشرائع قد حُرّفت من قبل بعض رجالها المتسلّطين وأصحاب المصالح حتى زالت الأصول، ولم يبق بين أيدي رهبانهم وأحبارهم إلا ما هو محرّف، كذلك فإن بعض هذه الشرائع قد ضاع مع الزمن وطول العهد وغياب الذين عليهم أن يحملوه.

ولا بدّ أن تكون الرسالة الخاتمة، وهي الإسلام، بلسان الرسول الخاتم، وهو محمد بن عبدالله، عليه الصلاة والسلام، ولسانه هو اللغة العربية. لذا كانت هذه اللغة سمةً من سمات هذه الأمة المسلمة الواحدة تتعارف شعوبها فيما بينها بواسطتها، وتأخذ شرعها منها، وتتعلم أمور دينها بها. وقد أدرك الأعداء هذا الجانب فوجّهوا سهامهم إلى هذه اللغة، وبذلوا جهدهم لمحاربتها، واتّخذوا الوسائل المختلفة كلها في سبيل إصابة هدفهم. وعمل المتسلّطون من أهلها، والمغروسون فيها من أعدائها والذين رُبّما وصلوا فيها إلى أعلى درجات السلم عملوا العمل نفسه فأضافوا لغات في بلادهم إلى جانبها، باسم لغة العلم، وباسم اللغة العالمية، وتحت شعار تعريب بعض الاصطلاحات. وأخذت الغريبة تتسلّل تسلّلاً

لتحلّ محلّ الأصلية، وتدخل كلمات منها تدريجياً في لغتنا ويتناقلها العامة إما عن جهلٍ وإما عن طريق التقليد مُحاكاةً لأولئك الذين يدّعون العلمَ، ومعرفة لغته، والذين يدّعون الثقافة والاطلاع، والذين يدّعون التقدّمية وإمكانية تقليد الدول الكافرة، وكثيراً ما ينتشر هذا في البلدان الضعيفة وفي الأماكن التي عند أهلها صَغار ورثوه بالتوجيه ومن وسائل الإعلام، التي تنطق باسم الطواغيت. كما يتبنّى ذلك أولئك الذين فتنتهم الحياة المادية في بلاد الكفّار بمباهجها فسعوا وراءها لتحقيق شهواتهم، وأخذوا يدعون إلى تقليدها ويعملون على ممارستها، وأولئك الذين بهرهم النظام المالي في ديار الكفر فدعوا إلى مزاولته لتأمين مصالحهم المالية، فوضعوا أموالهم هناك دعماً لذلك النظام فساهموا في إعمار تلك الديار، وأكلوا بعض المنافع عن طريق الحرام، وإن كانت ناراً، وأولئك الذين أغرتهم (ديمقراطية) الأعداء، فكانوا تبعاً لسدنتها حرصاً على مكانتهم التي أولاهم إيّاها أولئك السدنة. هذا إضافةً إلى الذين نموا في أرض المسلمين، وهم من غراس أعدائهم، سواء أكانوا قد بقوا على ما كانوا عليه من عقيدةٍ، أم أظهروا الإسلام، ووصلوا إلى نهاية السلّم، فتسلّطوا، وعملوا على محاربة اللغة العربية وبثّ غيرها كجانبٍ من جوانب المخطط العام في محاربة الإسلام

والكيد لأهله. ويجب ألا ننسى أبداً الذين أعمتهم العصبية فعملوا على إحياء لغات أقوامهم الجاهلية عصبيةً وجهلاً وإن كانوا يُسمّون أصحاب ثقافةٍ ومعرفةٍ، وربما حلّت ببلادهم وأهليها نكبة هزّت المسلمين جميعاً، وأثارت مشاعرهم ولكن ليس لهم من الأمر شيء، وليس بيدهم طول فتأثّروا وسكتوا على جراحهم، أما أبناء بلاد النكبة فقد كان تأثير ما أصاب مواطنهم أشدّ من غيرهم فحملهم ذلك إلى ركوب طريق العصبية الجاهلية حتى وصل بهم إلى ضرورة إحياء لغتهم حتى وكتابتها بالحرف اللاتيني نكايةً بمن أنزل ببلادهم النازلة وعصبيته القومية الجاهلية بل بلغ بهم الأمر إلى القناعة بإمكانية تأدية العبادة بلغتهم القومية، وهذا انحراف خطير. ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢﴾[1]. فقد أُنزل القرآن باللغة العربية لنقرأه بها، ولنُؤدّي العبادة بها، وفي قراءته عبادة، ولا يمكن أن نعقل معانيه ونفهم مراميه إلا إذا كنّا على علمٍ بالعربية، ومعرفةٍ بها، ولا يتمّ هذا إلا بالتمرين على المحادثة بها والمخاطبة، وتعليم النشء على ذلك. أما محاولة مكالمة الصغار باللغات القومية عصبيةً ومُباهاةً تحت شعار الانتماء إلى القوم فإن ذلك خطر على أولئك

---

(١) يوسف: ٢.

الناشئة الذين يشبّون على الضعف باللغة العربية إن لم يجهلوها تماماً وبذا لا يستطيعون فهم أمور دينهم. وإذا احتجّ بعضهم بتعليم اللغتين فإن ذلك أمر خاص لا يمكن للجميع أن يقوموا به، إضافةً إلى العامة، وهم سواد المجتمع.

كذلك فإن ترجمة كتاب الله إلى أية لغةٍ، لا يعني أن ما نحصل من ترجمةٍ هو «القرآن» بل هو ترجمة لمعاني كتاب الله، لا يتعبّد به، وليس في قراءته عبادة.

# الفصل الثاني

## اتباع الهوى والاستكبار

ذكرنا أن الكون يسير بنظام تام لا خلل فيه ولا اختلال، ولا تغيّر ولا اختلاف، بدقةٍ لا توازيها دقة، وذلك لأنه يسير حسبما أراده الله له، وضمن النظام الذي قدّره الله له، ولم يعمل البشر على التدخّل في ذلك بل لا يستطيع، ولو قُدّر له وتدخّل لاضطرب نظام الكون، ولكن لم يشأ الله ذلك. أما العلاقات الإنسانية القائمة بين البشر فهي مختلّة تماماً ومضطربة ذلك أن الإنسان لم يسر على المنهج الذي أراده الله له بل ردّه بعضهم تعنّتاً واستكباراً في الأرض، وأولئك هم الكافرون ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝٦﴾[1]. وربّما اتّخذ بعض الذين ينتمون إلى الإسلام مناهج مخالفةً لشرع الله تقليداً للكفّار، وقد يكون قناعةً بصلاحها، وهذا كفر أيضاً، وتلحق هذه الفئة بالفئة الأولى.

---

(١) التغابن: ٥، ٦.

وهناك من يُظهر الإسلام، ويُعلن عدم مخالفة قوانينه التي يضعها لأحكام الإسلام، ولكنها بالواقع مخالفة بروحها حيث يتفق ما وضع مع مصالحه، وإن لم يُظهر ذلك بوضوحٍ إلاّ أنّ إقامة الحدود معطّلة حيث يرى المتسلّط أن ما يضع من قوانين كافيةً للردع، ومنسجمةً مع روح الشريعة، وذلك افتراءً على الله. وربما طبّق بعضهم بعض الأحكام، وأعرض عن بعضٍ، وهذا كله مخالفات وعدوان على الإسلام، فقد نرى انتشار الربا والمصارف الربوية، ولكن لا أثر للخمر، ولا للدعارة، بل قد تُقام الحدود على العامة دون الخاصة، ثم يدّعي القائمون أن هذا هو الإسلام، غير أنّ النظام الإسلامي متكامل، لا يمكن تطبيق جانبٍ وترك جانبٍ آخر فإذا ما حدث ظهر الخلل، كما لا يمكن تركيب جزءٍ من آلةٍ على آلةٍ ثانيةٍ ويتمّ العمل بشكلٍ طبيعيٍ بل لا بدّ من أن يحدث خلل، وهو في العلاقات الإنسانية أكبر، وأكثر ظهوراً فمنهج الخالق لا يُمكن أن يُعادله منهج من وضع المخلوق مهما أُوتي المخلوق من موهبةٍ وذكاءٍ، وهي أساساً من الله، وقد منحه ذلك الخالق ولكن بقدر ما يحتاج إليه، لا ليشرّع لأمثاله من المخلوقات، ولا ليضع لهم مناهج بديلةً لشرع الله، إذ تطغى عليه الأهواء، وتغلب عليه المصالح، وتسيطر عليه رغبات الطواغيت الذين كلّفوه، لذا كانت القوانين الوضعية تتغيّر حسب

أهواء المتسلّطين وتتبدّل مع تبدّلهم. وتطبيق جزءٍ، وإهمال جزءٍ هو إيمان ببعض أحكام الكتاب وكفر ببعضها الآخر. يقول تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1].

وما دام فريق من الناس يُؤمنون بالله، ويُقرّون بما شرع الله لهم، ويعلمون أنه الحق من ربهم، وأن الله أنزل ذلك لهم رحمةً بهم، وهو أرحم بهم من أنفسهم، وأعلم منهم بشؤونهم، فلماذا يردّون منهج الله، ويضعون لأنفسهم قوانين مع قناعتهم بعدم صلاحيتها، وأنه لا وزن لها أمام شرع الله؟. لا شك أن هناك أموراً تجعل الذين يتبعون الشهوات والهوى يُفضّلون وضع قوانين تتفق وأهواؤهم، وتُحقق لهم شهواتهم، وفي الوقت نفسه يردّون منهج الله لأنه يحول بيهم وبين ما يريدون، ومن هذه الأمور:

### ١ ـ المكانة والاستكبار:

تتباين النفوس، وتتغاير الطبائع، فهناك نفوس ترفض أن تُذعن للحقّ، وهناك أخرى تستكبر إذا طُلب منها أن تقبل مساواتها بغيرها، وهناك أصحاب نفوسٍ تأخذهم

---

(١) البقرة: ٨٥.

العزّة بالإثم إذا دعوا إلى التنازل عن عليائهم التي يظنّون أنهم فيها.

فابنا آدم هابيل وقابيل اللّذان قدّما بعض ما يملكون تقرّباً إلى الله عسى أن يحظى كل منهما بما رغب فتقبّل الله قربان هابيل حيث قدّم كبشاً من أفضل ما عنده من الأغنام، إذ كان يمتهن تربيتها، ولم يتقبّل قربان قابيل الذي قدّم حزمةً من نبات القمح من أسوأ إنتاجه، وأقلّها سنبلاً، فاستكبر قابيل، وطغى عليه الغضب، وأخذته العزّة بالإثم، وقرّر قتل أخيه، ونفّذ ما صمّم عليه، رغم أن أخاه هابيل قد أظهر له اللين، وأبدى له أنه لا يمكنه أن يتصرّف تصرّفه إذ يخشى الله، تذكيراً له بالخوف من الخالق، ومن العقوبة والإثم ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾[1].

وإبراهيم الخليل الذي حاجّ الملك النمرود

---

(١) المائدة: ٢٧ ـ ٣٠.

المستكبر بملكه، المعتزّ بسلطانه، فلما قال له إبراهيم عليه السلام إن الله هو الذي يُحيي ويُميت. أخذت العزة بالإثم النمرود المتغطرس فأجاب على الفور: إنه هو أيضاً يُحيي ويُميت، وهو متأكّد أنه كاذب، ولن يستطيع خلق ذبابةٍ وإن تسلبه الذبابة شيئاً لا يستطيع أن يستنقذه منها، كما يعلم علم اليقين أن إبراهيم عليه السلام عندما حاجّه وذكر له أن الله يُحيي ويُميت قصد أنه يُوجد من العدم، وأنه يخلق شيئاً لم يكن بالأصل موجوداً، ولكن النمرود قصد أنه يعفو عن إنسانٍ كان قد تقرّر قتله وبذلك يكون قد أحياه، ويأمر بقتل إنسانٍ آخر حيٍّ فيكون قد أماته. وانتبه الخليل عليه السلام إلى قصد ذلك الطاغية فلفت انتباهه إلى حادثةٍ كونيةٍ، وهي الشمس، فقال له: إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب، فبُهت النمرود، ووجد نفسه صغيراً، ورأى أنه عاجز على أن يقوم بأيّ شيءٍ إلاّ أنه استكبر، فانتفخت أوداجه، وقرّر قتل الخليل والخلاص منه ومما يدعوه إليه، ومن الحق الذي يُلاحقه ويراه أمام عينيه، ولكنه عاجز ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى

﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾[1]. ورأى إبراهيم الخليل عليه السلام، عبادة قوم النمرود للأصنام التي لا تنفع ولا تضرّ، ولا تستطيع أن تدفع عن نفسها كطاغيتهم الذي لا يمكنه أن يدفع عن نفسه، ومع ذلك يدّعي الألوهية أمامهم. فأخذ الخليل بتكسير تلك الأصنام، وسدنتها غائبون عنها في عيدٍ لهم، لم يحضره الخليل لما فيه من شركٍ ومخالفاتٍ، ولمّا رجعوا وجدوا أصنامهم محطّمةً، فتساءلوا عمّن فعل بها ما فعل، وعرفوا أنه الخليل، فسألوه، فأجابهم: إن كبيرهم هو الذي فعل بالصغار ما فعل، فحطّمها وها هي المطرقة معلقة بيده إشارةً من الخليل إلى قومه لعلهم يعقلون بأن طاغيتكم النمرود سيوردكم جهنم ولا يمكن أن تدفعوا عن أنفسكم شيئاً، وقد جعلتموه كبيراً فيكم فاستخفّ بكم وأطعتموه، كما جعلتم هذا الصنم كبيراً، ولكنه لم يدافع عن الصغار بل لا يمكنه أن يدفع عن نفسه ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ

---

(١) البقرة: ٢٥٨.

﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾[1].

ورأى الطاغية الفرصة لقتل الخليل فأشار إلى زبانيته، فقالوا: حرّقوه انتقاماً لأصنامكم، ولم يقولوا ثأراً لطاغيتكم الذي ظهر عجزه أمام نور الحقّ الساطع، فجمعوا الحطب، وأوقدوا النار، وألقوا الخليل فيها، ولكن قدرة الله فوق كل قدرةٍ، وإرادته فوق كل إرادةٍ، ففقدت النار خاصيتها التي خلقها الله فيها، وانقلبت إلى برودةٍ وسلام على إبراهيم، وشُده القوم مما رأوا، وطاش صواب الطاغَية إذ ظهر أنه لا قوة له أبداً. ومع ذلك لم يعد إلى الحقّ، ولم يرجع إلى ربّه الذي خلقه، وأوجده من العدم، وجعل فيه شيئاً من القوة، وآتاه الملك، فاغترّ بما أتاه الله واستكبر في الأرض بغير الحق ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾[2].

وبعث الله نبيه موسى إلى الطاغية فرعون، فذكّره موسى، عليه السلام، بآيات الله، وما سخّره للإنسان في هذه الأرض، فاستكبر الطاغية، وقال له: لئن اتخذت إلهاً

---

(١) الصافات: ٨٣ ـ ٩٩. (٢) الأنبياء: ٦٨ ـ ٧٠.

غيري لأسجننك، فأجابه الرسول: أتسجنني ولو جئتك بآيةٍ بيّنةٍ من ربي وربك؟

**قال فرعون:** ائت بها إن كنت صادقاً.

فألقى موسى عصاه فإذا هي ثعبان كبير. ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين، وقد تغيّرت عن طبيعتها. فأظهر فرعون السخرية، وقال: هذا سحر واضح، وعندنا كثير من السحرة أمثالك، وهو يقصد أنك يا موسى يجب أن تكون ممن يتقرّب إلينا، لتحصل على المكانة، فإن أمثالك يعملون جاهدين لإرضاء فرعون صاحب المقام العالي، ولتتأكّد من ذلك فسنأتيك بسحرٍ مثل ما جئت به من السحر، ومتى تحبّ فما عليك إلاّ الاستعداد للاختبار، ورؤية السحر الذي عند أتباعنا.

**قال موسى:** موعدكم يوم الزينة حيث يحشر الناس، ويجتمعون ابتهاجاً وقت الضحى، ليروا الحق ويعرفوه، وليشاهدوا الكذب والخداع فيجتنبوه. وقد كان موسى الكليم، عليه السلام، مطمئناً إلى نجاحه إذ يعلم علم اليقين أن الله معه يسمع ويرى، وسيُؤيّده بنصر من عنده، هكذا وُعد ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى

مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾[1].

وأرسل فرعون إلى مدائن مصر كلها يجمع السحرة، ويضرب لهم موعداً مُحدّداً، وخرج منادوه، وحشروا كل سحّارٍ معروفٍ. وجاء السحرة إلى فرعون حسب الموعد الذي حدّده لهم، فالتقى بهم، ونبّههم إلى ما أبدى موسى من معجزاتٍ، وإلى استعماله العصا التي انقلبت إلى ثعبان. واطمأن حسب ظنّه إلى أن السحرة سيتغلبون على موسى. وطمع السحرة بما سينالوه فقالوا: هل لنا أجراً يستحقّ هذا العمل إن تفوّقنا على خصمك، فقال: نعم، وإضافةً إلى الأجر المادي ستكونون من المقرّبين إلى مقر المقام العالي ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[2]. فكانت تلك الحبال والعصي على شكل ثعابين وأفاعي مخيفةٍ أخافت الناس، وزها فرعون، وظنّ أن موسى لن

---

(١) طه: ٤٢ ـ ٤٦.　　(٢) الشعراء: ٣٦ ـ ٤٤.

يستطيع أن يُجاري السحرة ﴿قَالَ أَلْقُوا۟ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾[1]. فقال موسى وقد عرف الحق: إن ما فعلتموه هو السحر، وقد سحرتم أعين الناس فقط وهذا عملكم من السحر، أما العصي والحبال فلم تتغيّر عن طبيعتها، وإن الله سيُبطل هذا وسيُظهر الحق ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾[2]. وألقى بعدها موسى عصاه فإذا هي ثعبان كبير حقاً، وإذا هو يبتلع الحبال والعصي التي بدت للناس على أنها أفاعي ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾[3]. ﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾[4]. وشعر الطاغية بخيبة الأمل، وظنّ أن أمره سيضعف، وأن أمر موسى سيقوى، ولكن جاءته الضربة الأشدّ ذلك أن السحرة قد عرفوا الحق، فهم أصحاب مهنة السحر، وأيقنوا أن علمهم كان باطلاً، فأُلقوا ساجدين، وقد آمنوا بالله، وبما جاء به موسى، وكفروا بفرعون، وبما كان

---

(١) الأعراف: ١١٦. (٢) يونس: ٨١، ٨٢.
(٣) الأعراف: ١١٧ ـ ١١٩. (٤) طه: ٦٩.

يدّعي من ألوهيةٍ ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾[1]. فاستشاط الطاغية فرعون غضباً، وكانت هزةً عنيفةً له ولملكه لذا هدّد السحرة، وظنّ أنهم قد تواطؤوا مع موسى، عليه السلام، على فرعون، أو هكذا ذهب فكره القاصر، وعقله غير السليم حيث لا يرى إلا سلطانه، ولا يُفكّر إلا بكبريائه، وقال للسحرة إنه سيقطع أيديهم وأرجلهم من خلافٍ، وليُصلبنّهم في جذوع الشجر صلباً قاسياً حتى لتختلط لحومهم بخشب الشجر، وظنّ أن هذا التهديد سيردعهم، وسيضطرون للعودة إلى تأليه الطاغية، والكفر برب موسى وهارون ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾[2]، غير أن السحرة قد عرفوا الحق، وآمنوا إيماناً صادقاً، ففي نفوسهم نزع نحو الإيمان، وفي قلوبهم توجّه لمعرفة الحق، وقد علموا ذلك علم اليقين، وآمنوا، ورسخ الإيمان في فؤادهم، فلم يعد يُجد تهديد، ولم تنفع عقوبات، فالإيمان لا ينزع بهذه الصورة ولكن إذا ظهر بطلانه، وحلّ في القلب إيمان آخر مكانه، لذا أجاب السحرة بيقينٍ وثقةٍ افعل ما أنت فاعل حيث تستطيع أن

---

(١) طه: ٧٠. (٢) طه: ٧١.

تفعل في هذه الحياة الدنيا، وهي حياة قصيرة، تنقضي بلمح البصر، غير أن الحياة الآخرة هي التي يُخلّد فيها الإنسان، ويجازى على عمله، فلن تستطيع فعل شيء، بل ستكون حصب جهنم بما فعلت في الدنيا، وبما أكرهتنا عليه من الكفر. وبما أجرمت بحقّ الرعية الذين وُضعوا تحت يدك في هذه الدنيا ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾[1]. ومع هذا لم يؤمن فرعون بل ازداد طغياناً وكفراً.

أخذ المؤمنون يزداد عددهم فمن يفكّر ويبتعد عن الهوى يصل إلى الحق بإذن الله. وذلك من يرد الله هدايته. وتضايق أصحاب الهوى والشهوات من أتباع فرعون والمقرّبين إليه، فقالوا لفرعون: أهكذا تترك موسى ومن معه ليُفسدوا في الأرض، ويُبعدوا الناس عنك وعن آلهتك، فأجابهم بأننا سنُقتّل أبناءهم، ونبقي

(١) طه: ٧٢ ـ ٧٦.

نساءهم لننال منهن ما نريد، ونُحقق بهنّ ما نشتهي. فطلبِ موسى، عليه السلام، من قومه الصبر على ما يصيبهم من عدوّهم، وأن الله سينصرهم في النهاية.

وكانت آيات الله تبدو لفرعون وقومه، ولكن لم تكن لتنفعهم حيث يغلب عليهم الهوى، ويُسيطر عليهم حبّ الاستكبار في الأرض، والانتقام من الآخرين، والاستئساد عليهم، والتشفّي منهم، والتحكّم بهم، والتلاعب بهم، والطغيان عليهم. فأتاهم العذاب الأولي من الله عسى أن يرجعوا إلى ربهم، ويندموا على ما وقع منهم، ويستغفروا ربهم، ولكن لم يفعلوا هذا بل طلبوا من موسى، عليه السلام، أن يدعو ربه ليُخفّف عنهم، فإن دعا، وزال عنهم ما حلّ بهم سمحوا له أن يخرج بقومه إلى حيث يريد. فدعا موسى ربه، وكُشفت الغُمّة عن قوم فرعون، ولكن بدلاً من أن يفوا بوعدهم الذي قطعوه لموسى على أنفسهم نكثوا بما وعدوا به، بل قرّروا تشديد الخناق على قوم موسى، فخرج موسى وقومه، فلحقهم فرعون وقومه، فأغرق الله الكافرين، ونجّى من آمن يومها، وذلك عبرةً للناس جميعاً ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ

﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾[1].

ولم يكن فرعون وحده الطاغية بل أولئك الذين يستفيدون من طغيانه فيطغون ويستبدّون حيث يعيشون في

---

(١) الأعراف: ١٢٧ ـ ١٣٧.

ظلّ الطغيان فيطغون، ويحيون في كنف الاستبداد فيستبدّون يتصرّفون كما يتصرّف سيدهم، ويرتعون كما يرتع كبيرهم في أموال وأعراض الرعية، ويستعلون في الأرض بغير الحق باسم صاحب المقام العالي فرعون، وباسم المنصب الذي يشغلونه، والمركز الذي يتبوّؤونه، والصلة التي يصلون إليها، والقربى التي تُؤهّلهم ليقوموا بكلّ ما يُحقّق رغباتهم، ويُؤمّن طلباتهم، ويروي شهواتهم.

## ٢ ـ الرفعة والشهرة:

يحبّ بعض الناس المكانة، ولفت النظر إليهم فتراهم يتعالون بالحقّ وبالباطل، لذا يرغبون في المنصب ليتحقّق لهم ذلك، ويحلمون بالمركز ليتسنّى لهم التعالي والتحكّم بالآخرين، وتوجّه الناس نحوهم، ويُرضون بذلك غرورهم. وهذا أمر خطير، وتلك ظاهرة مرضية، ونتائجها مُخيفة، حيث يسعى هؤلاء إلى ما يأملون به بغضّ النظر عن الوسيلة التي يلجؤون إليها إذ تراهم يتزلّفون إلى الطواغيت، وينبطحون أمامهم ليتصرّفوا بهم كما يشاءون، ويتوسّلون بأناسٍ ويُقدّمون لهم ما يملكون كله وقد يصل ذلك إلى الشرفَ والأعراض، كما يضعون إمكاناتهم جميعها وطاقاتهم كلها أمام الطاغوت. وإذا وصلوا إلى ما يعملون له ارتاحت نفوسهم، واطمأنت

سرائرهم، وشعروا أنهم قد حصلوا على مبتغاهم واحتلّوا مكانهم الطبيعي ـ حسب زعمهم ـ.

يأتي بعد ذلك دور المحافظة على المنصب الذي نالوه بعد عناءٍ، ووصلوا إليه بعد جهدٍ، وحصلوا عليه بعد بذلٍ وعطاءٍ، ولم يشعروا أنهم قد فقدوا الكرامة بما أراقوا من ماء الوجه، وفقدوا المكانة الحقيقية بما سفحوه من شرفٍ وعرضٍ. ولكن عليهم ـ حسب قناعتهم ـ المحافظة على المكانة الموهومة التي تربّعوا عليها، والمنزلة الخيالية التي جلسوا على سدّتها. وتكون المحافظة على ذلك بأن يكونوا أداةً طيعةً بأيدي الطاغوت بل أحذيةً بأرجلهم يخلعونها وينتعلونها حسب حاجتهم إليها. يُنفّذون كل ما يُطلب منهم، ويُحقّقون لهم كل ما يشتهون ولو كان على حساب كرامتهم وشرفهم، وهم فرحين. على أمثال هؤلاء يرتفع الطواغيت، وتعلو تيجان، ويتسلّط أقزام، وتُداس حقوق، وتُهدر كرامات، وتُذلّ أمم، وتخضع شعوب، وتُحنى رقاب، ويموت من يموت.

هؤلاء يرفضون الشرع، ويأبون حكم الله، لأنه لا يُوافق رغباتهم، ولا ينسجم مع تطلّعاتهم، وهم لا يقبلون إلاّ ما يتحقق مع أهوائهم، ويُؤمّن لهم منصبهم العالي، ومركزهم الرفيع، لذا فهم مع القوانين الوضعية التي تُحقّق لهم ذلك. أما الشرع الإسلامي فإنه يحول دون مثل هذه

التصرّفات، ويمنع من وجود خللٍ في المجتمع، وطغيان فئةٍ على أخرى، وتسلّط أقزام، وارتفاع أناسٍ لا خلاق لهم. ويمنع التمرّغ في الأوحال، والرعي في أعراض الناس، واستباحة أموال الشعب، واغتصاب أملاك الرعية تحت مُسمياّتٍ غريبةٍ وأسماءٍ مستعارةٍ.

وفي الوقت نفسه فإن سادة هؤلاء يردّون شرع الله لأنه يمنعهم من ممارستهم في التسلّط، والطغيان، وإرواء الغرائز عن طريق الحرام، والقهر، والاغتصاب. وما دام السادة يردّون الشرع، فإن هؤلاء الأتباع يردّونه تبعاً للسادة.

ويُعدّ «هامان» وزير فرعون أنموذجاً لهذا الصنف، حيث كان شديد الحرص على منصبه، شديد الولع بمركزه، يُنفّذ لفرعون كل ما يأمر به سواء أكان بالحق أم بالباطل، ويعمل على إرضاء سيده بطاقاته كلها ليبقى على وضعه، وليستمر على إرضاء غروره، لذا يُعدّ شريكاً لفرعون في طغيانه، ومسؤولاً معه في ردّ شرع الله، وإنكار وجود الله، وجحود قدرة الله ونعمه، وهو معه في الآخرة، في جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً. ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾[1]. ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ

(١) القصص: ٨.

﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾[1]. لقد كان فرعون يطلب من هامان أموراً مستحيلةً فلا يُظهر العجز، ولا يُبيّن له أنّ هذا أمر غير مُمكن عمله، بل يُظهر الاستعداد، ويشرع في العمل الممكن إيهاماً بتنفيذ الأوامر ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾[2]. وهذا ما صدّ هامان عن الإيمان، وأورده النار، وبئس الورد المورود.

### ٣ ـ المال:

جُبل الإنسان على حبّ المال ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾[3] غير أنّ المؤمن يعدّ المال وسيلةً يُيسّر به معيشته، ويُخفّف به من أعباء الحياة بإذن الله، ولكن غير المؤمن يعدّه غايةً فيعمل على جمعه وادّخاره، ويسعى لكنزه وزيادته، وكلما جمع مبلغاً عمل على إضافة آخر

---

(١) العنكبوت: ٣٩، ٤٠.　　(٢) غافر: ٣٦، ٣٧.

(٣) العاديات: ٨.

إليه حتى يصبح ذلك شغله الشاغل وعمله الدائب، لا يُفكّر إلاّ به، لا يُنفق إلا وهو كاره، ولا يبذل إلا إذا أُجبر على ذلك. ونتيجة حبّ المال، والحرص على الجمع، واعتباره غايةً بذاته كل هذا يجعل من يعمل على ذلك عبداً للمال، يذلّ نفسه للحصول عليه، ويهدر كرامته للوصول إليه، ويبذل شرفه لجمعه، لذا يحني رقبته للطواغيت كي يناله، ويبسط يده للمزيد، بل قد يعرض شرفه للإكثار. ولما كان هذا كله مما يأباه الإسلام ويرفضه، ويقف في وجهه، ويمنع وقوعه لذا كان عبدة المال والمغرمون بجمعه وكنزه ممن يردّ شرع الله بجرأةٍ ووقاحةٍ، أو بخداعٍ وغمغمةٍ إن كان يعيش وسط مجتمعٍ إسلاميٍ. وذلك تَبعاً لهوى نفسه، ورغبةً في تحقيقِ شهواته. هذا إضافةً إلى ما يريد هؤلاء من إظهار التزلّف والتأييد للطواغيت الذين يردّون الشرع، كي ينالوا منهم مبتغاهم.

وليس هذا يعني أن المسلم لا يحبّ المال، ولا يعمل له، ولا يسعى من أجله، بلى فحب المال من طبيعة البشر، والعمل له أمر مطلوب، والسعي من أجل تحصيله شيء مرغوب فيه، ولكن يعمل المسلم هذا كله لتأمين حاجاته، ولتحقيق أسباب حياته، فهو عنده وسيلة وليس غاية، وهو قبل كل شيء يُؤدّي حقّ ماله، ويُطهّره

بما يجب عليه من زكاةٍ، ثم يتصدّق أملاً بالأجر والثواب، كما يمكنه أن يتنعّم ضمن الحدود التي شرعها الله. وقد قال رسول الله ﷺ، لعمرو بن العاص: «يا عمرو! نعم المال الصالح للمرء الصالح».

ومع ذلك فالمؤمن يجب ألا يشغله المال أو العمل على تحصيله عن ذكر الله ولا عن العبادة، كما يجب ألا يلهيه عن أداء الدور المكلّف به من الدعوة، والعمل لله، ومساعدة العاملين في الميدان الإسلامي ودعمهم لتأدية المهمة المناطة بهم.

والمال مال الله يؤتيه من يشاء، ويكون هذا المال ابتلاء من الله، فهو نعمة إن أحسن الإنسان التصرّف به، ويكون نقمةً إن أساء المرء ذلك التصرّف. فمن يُحسن يُؤدّي حقّه، ويتصدّق، ويقوم بأعمال الخير، ويُنفق حسبما أباح الله له، ومن يُسيء يمنع حق الله في المال، ولا يُؤدّي ما فرضه الله عليه، ويبخل، وتبطره النعمة فيستعلي بماله، ولا ينفق إلا وهو كاره، ويجمع ويكنز، ويُبذّر، ويُسرف على نفسه، وعلى ما حرّم الله، ولذا يردّ شرع الله، ويرفض أوامره، ويعمل حسب أهوائه وشهواته ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ

ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[1].

وأكل المال بالباطل، والحرص على جمعه سواء أكان عن طريق الحلال أم عن طريق الحرام، وعدم أداء حق الله، والبخل كل ذلك يُؤدّي إلى الثراء، وغالباً ما ينشأ عن ذلك الترف، وقد ورد الترف في كتاب الله في ثمانية مواضع، وكلها في موضع الذمّ والإفساد في الأرض، والعاقبة السيئة نتيجة هذا التصرّف ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾[2].

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ

---

(١) التوبة: ٣٤، ٣٥. (٢) المؤمنون: ٣٣ ـ ٣٨.

﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَـٰهُمْ حَصِيدًا خَـٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ ﴾[1].

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ ﴾[2].

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾[3].

﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾[4].

﴿وَأَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾[5].

---

(١) الأنبياء: ١١ ـ ١٥.
(٢) هود: ١١٦.
(٣) سبأ: ٣٤، ٣٥.
(٤) الزخرف: ٢٣.
(٥) الواقعة: ٤١ ـ ٤٨.

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾[1].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾[2].

وقد ضرب مثلاً بقارون الذي آتاه الله المال الكثير فما شكر نعمة الله ولا قدّرها، بل ادّعى أن ماله قد حصل عليه نتيجة علمه ومعرفته بطرق تحصيله، وبغى في الأرض، واستكبر فعاقبه الله بأن خسف به وبداره الأرض، فلم يُغن عنه ماله، ولم ينفعه أتباعه الذين كانوا يُفكّرون الإفادة منه في الحياة الدنيا ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ

---

(١) الإسراء: ١٦.

(٢) المؤمنون: ٦٤ ـ ٦٧.

ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾[1].

وربما كانت الكنوز تتكدّس والأموال الكثيرة تتجمّع من الحرام كالربا والاحتكار، ومن المتاجرة بالمحرمات كالخمور والمخدّرات والأجساد والشهوات، ومن البخل والشحّ، ومن الفساد والسرقات، ومن التلاعب بالميزان وقطع الطرقات، ومن الظلم وأكل المال بالباطل وأمثال هذه الأنواع المحرمة التي تعرف في المجتمعات القائمة اليوم. وقد ضرب الله مثلاً في القرآن من هذا النوع أهل مدين الذين كانوا يتلاعبون بالموازين والمكيال، ويقطعون الطرقات، فبلادهم كانت ممراً للقوافل والتجار، فتجمعت الأموال بأيدي أكابر مجرميهم ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ

(١) القصص: ٧٦ ـ ٨١.

بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾[1].

إن من يكن المال همه وجمعه وكنزه شغله، لا يبالي من أي مصدرٍ كان تحصيله، وعلى الفحش والموبقات بذله لا يسمع إلى من ينصحه، ولا يرعوي إلى من يُذكّره بل يردّ كل من يحاول هديه، وبذا يردّ شرع الله ويبقى سادراً في غيّه.

## ٤ ـ الشهوات:

الغرائز فطرة في الإنسان أودعها الله فيه لتستمر الحياة، وليبقى إعمار الأرض، وشرع للبشر وسائل لصرف هذه الغرائز بطرقٍ طيبةٍ طاهرةٍ، ومن هذه الغرائز الميل إلى الجنس، غير أن بعضهم تجمح به غريزته فينطلق لإروائها دون وعيٍ، وينصرف لإشباعها من غير وازعٍ، فيتمرّغ في أوحال الرذيلة، ويظن أنه يُؤمّن لنفسه السعادة، ويُحقّق لها ما تصبو إليه، ويقع في الفاحشة وهو لا يدري بل يرى أنه يحصل على شهوته، ويُؤدّي ذلك إلى اختلاط الأنساب وإلى ارتكاب الجرائم، وانتهاك الحرمات، وربما عدّ ذلك مفخرةً إن كان من ذوي المراتب، وقد يهدر المال الكثير إن كان من المترفين

---

(١) هود: ٨٤، ٨٥.

ليضع شهوته في أقذر المواضع التي لا تردّ طارقاً، ولا تمتنع عن فاحشٍ إن كان موسراً، وكم أُنفقت خزائن خلف أوسخ الوسخات إن رأى فيها مثيلها ما يدعو هواه لقضاء سويعات معها.

وهناك شذوذ آخر، وهو فعل قوم لوطٍ، وقد ابتُلي به آخرون، وإن كان قليلاً بالنسبة إلى سابقه ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾[1]. وهناك المخنّثون من الرجال والمترجّلات من النساء الذين لعنهم الله. وهذا كله شذوذ، لا يقبل أصحابه النصح، حيث لا يرون إلا شهوتهم أو فريستهم. ويردّون شرع الله الذي يرفض هذا الشذوذ ويُحاربه لما فيه من منكرٍ، وأذىً للناس، وفساد للمجتمع.

ومع أن الله قد عاقب الطغاة، والمجرمين، وعبدة المال، وأصحاب الشهوات من السابقين فأخذ كلاً بذنبه ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ

(١) العنكبوت: ٢٨ ـ ٢٩.

أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾[1]. ولكن لم يعتبر من جاء بعدهم لأنهم يجرون وراء شهواتهم، ولا يُفكّرون إلا بملذّاتهم فيُعميهم ذلك عن الحقّ، ولا يرون إلا ما يسعون إليه، ويتّبعون أهواءهم، فيُضلّهم الهوى عن سبيل الله. ويردّون شرع الله بل يُحاربونه أشدّ الحرب، ويقفون بجانب كل من يُحاربه، ويتولّى بعضهم بعضاً:

(١) العنكبوت: ٤٠.

# الفصل الثالث

## التعنت والعصبية

اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يبعث في كل أمّةٍ رسولاً منهم يدعوهم إلى عبادة الله، ويعرفهم عليه من خلال آياته المبثوثة في الكون، ومن آثار نعمته عليهم خلقه لهم وشواهد ذلك بما يرونه ويحسونه ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾[1].

وكتب الله للخلق ألا يُعذّب قوماً ما لم يبعث لهم رسولاً يدعوهم إلى الله، ويعمل على هدايتهم ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾[2]. غير أن البشر يتفاوتون في قبولهم الحق، ويتباينون في اتّباعهم الهدى حسب تفكيرهم وتبعاً لمصالحهم وشهواتهم ومغريات الدنيا واتباعاً لأهوائهم.

ولما بعث الله أنبياء للأقوام جميعاً ورسلاً للشعوب

---

(١) فاطر: ٢٤.    (٢) الإسراء: ١٥.

كلها ختم النبوات والرسالات بآخر الأنبياء محمد بن عبدالله، عليه وعلى إخوانه أفضل الصلاة والسلام، وأنزل عليه رسالةً تشمل الرسالات السابقة تؤكّد ما جاء من مبادىء التوحيد فيما سبقها، وتنسخ ما كان يخص شعباً معيناً، وما كان يصلح لبيئةٍ محدّدةٍ، فكانت الرسالة الخاتمة، وتلك هي القرآن شريعة للبشر جميعاً على اختلاف عروقهم، وتباين ألوانهم، وافتراق مواطنهم، ومراحل تاريخهم، فلا يصحّ لشعبٍ أن يتمسّك بما نُسخ، ولا أن يدّعي بأفضلية ما سبق، أو ما جاء به رسوله. كما لا يجوز أن يردّ ما أنزل الله، ما دام من الإله، الرب، الرحيم بخلقه، العارف بأسرارهم، العالم بما يصلح لهم، وما يحتاجون إليه.

## اليهودية:

غير أن بعض الشعوب ومنهم بنو إسرائيل قد صعُب عليهم أن يروا النبي الخاتم من غيرهم بل من الأساس لم يُؤمنوا بنبي من غيرهم، ولم يعترفوا برسولٍ من غير بني إسرائيل. فعندما بُعث رسول الله ﷺ، محمد بن عبدالله، وعرفوا أنه رسول الله، أنكروا ذلك وكفروا به في الوقت الذي كانوا يستفتحون به على العرب، ويقولون سيأتي نبي قريباً، وقد بُعث، وسنقاتلكم معه، ونقتلكم قتل عادٍ وإرم. فلما عرفوا رسول الله، ردّوا ما جاء به، وأنكروا

كل شيءٍ، وكل ما سبق أن قالوه ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾[1]. وأخذتهم العصبية القومية، وتعنّتوا، وقالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه فكيف يبعث للبشرية من غيرنا فهذا أمر مستحيل - حسب زعمهم - ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾[2]. وما كان هذا إلاّ بغياً منهم على غيرهم وحسداً من أنفسهم على أن يُنزّل الله شيئاً على غيرهم إذ يريدون أن يستأثروا لأنفسهم بكل شيءٍ، ولا يريدون خيراً لأحدٍ علواً في الأرض واستكباراً وكرهاً للآخرين وحقداً عليهم ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾[3]. ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ

---

(١) البقرة: ٨٩. (٢) المائدة: ١٨.
(٣) البقرة: ١٠٥.

عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾[1]. ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾[2].

من هذا التعنّت، ومن هذه العصبية، ومن هذا الحسد للنّاس، ومن الكراهية للآخرين والحقد عليهم، ومن الرغبة بالاستئثار بالخير لأنفسهم، ومن محاولة العمل الدائب للسيطرة على العالم والتسلّط على الخلق والتحكّم بالناس جميعاً، وقفوا ضدّ شرع الله، وما أُنزل على رسوله محمد بن عبدالله، وكفروا، ووقفوا ضد الدّعوة الإسلامية وبذلوا كل جهدٍ لمحاربتها ومحاولة إطفاء شعلتها، والصدّ عن سبيل الله. فكانوا كلما عاهدوا عهداً نقضوا ونكثوا بما اتفقوا عليه ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾[3]. ﴿الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾[4]. وكانوا يحيكون المؤامرات ضدّ المسلمين، ويُحزّبون الأحزاب، وإذا انفردوا بمسلم قتلوه، وإن وجدوا مؤمناً وحيداً غدروا به ﴿كَيْفَ وَإِن

---

(١) البقرة: ٩٠.
(٢) البقرة: ١٠٩.
(٣) البقرة: ١٠٠.
(٤) الأنفال: ٥٦.

﴿يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾[١].

وقد أخزاهم الله، وقهرهم، وأذلّهم على أيدي المسلمين، غير أن مُؤامراتهم لم تنقطع ولكنها أصبحت في الخفاء، واستمرّت جرائمهم في الظلام، وبقيت أماكنهم أوكاراً للفحش، ومراكز للكيد. وإن أظهروا الهدوء نسبياً بعد أن أخزاهم، وانتظروا ليضعُف المسلمون ولكن خاب ظنّهم، فلمّا كانت خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أجلاهم عن جزيرة العرب بعد أن قوّم لهم حقوقهم حسب تقدير لجنةٍ شكّلها لهذا الغرض، فغادروا الجزيرة إلى الشام، ومن هناك أخذوا بالكيد عن جديدٍ حسب إمكاناتهم.

كان اليهود يتصوّرون ـ حسب تقديراتهم ـ أن المسلمين سيُصيبهم الضعف إن لم يكن على يد الروم والفرس فعلى أيديهم أنفسهم بالخلاف، ولمّا لم يتحقّق حلمهم بل وجدوا قوة المسلمين تزداد، وديارهم تتسع

---

(١) التوبة: ٨ ـ ١٠.

عندها لجؤوا إلى حبك الفتن والعمل على الهدم من الداخل، وأخذوا يُخططون إلى إثارة الفتن داخل الصفّ الإسلامي، وذلك بإظهار بعضهم الإسلام والعمل على إثارة الشكوك في العقيدة، وطرح أفكارٍ غريبةٍ هدّامةٍ، وبذر جذور الخلاف، ودعم الجانب الصغير المعارض، وكانت فتنة عبدالله بن سبأ، والتي كان لها دور خطير، جزّأت المجتمع، وإن استطاع يومذاك بوعيه وأدها مرحلياً إذ قتل الخليفة علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، صاحب الفتنة عبدالله بن سبأ الذي يزعم ويتظاهر أنه يُؤيّد هذا الخليفة بل كان من مخطط الفتنة أن يعطي عليّاً، رضي الله عنه، مكانةً فوق مكانة الآخرين، ويرفعه فوق مستوى البشر، ولكن إن كان هذا يعجب اليهود، وأصحاب الفكر المادي، وطلاب الدنيا، ويدخل عليهم، لكن لا يقبله أحد من أصحاب رسول الله ﷺ، من أمثال عليّ، رضي الله عنه، الذين لا تغرّهم الدنيا، ولا يُقيمون لها وزناً، ولا يريدون رفعةً من أبناء الدنيا، إذ رفعهم الإسلام، وسما بهم أكثر مما يُفكّر به طلاب الدنيا.

بقي ديدن اليهود هذا في كيدهم للإسلام يدسّون رجلاً منهم بين صفوف المسلمين يظهر في منطقة ويمكث فيها مدةً حتى يُعرف أنه مسلم ثم ينتقل إلى قاعدة الإقليم أو مركز الدولة فيعلوا شأنه بما يمدّه اليهود

من مالٍ سرّاً، وقد يصل إلى أعلى درجات السلم، وقد يكون له مكانة في الديار كلها لمواقفه التمثيلية والخدّاعة أو لغناه، ويبدأ بالتهديم تدريجياً حجراً بعد حجرٍ فيما إذا وصل، أو بالفتنة، والمكر، ونشر الفساد إن لم يصل، وبقي في درجات السلم الوسطى. وقد ينجح بعضهم جزئياً في فتنته حتى ينكشف أمره فيزول، وإذا لم ينكشف يكون قد لعب دوراً في الفساد، وتشويه الحقائق، وتغيير المفاهيم حسب إمكاناته في الخبث.
استمرّت هذه الطريقة منذ فتنة عبدالله بن سبأ حتّى هذا اليوم الذي نعيش فيه حيث زاد المكر، وجرى تعاون بين اليهود والنصارى في هذا الإطار، والنصارى أصحاب نفوذٍ واسعٍ في ديار الإسلام بعد إلغاء الخلافة والسيطرة على أجزاءٍ شاسعةٍ من بلاد المسلمين، وزادت أساليب المكر، ووسائل الخبث، وطرق التجسّس، وفي الوقت نفسه ضعف المسلمون، وكثرت غفلة علمائهم الذين أهملوا دراسة الواقع، وأساليب الخصم، ووسائل الإعلام، وحروبها، والتوجيه المعنوي، وطرق الخداع، فغدا أمر تسييرهم ممكناً، وإمكانية جرّهم إلى داخل اللعبة الدولية غير صعبٍ. لهذا كله وصل اندساس اليهود في هذا الوقت إلى أكبر عددٍ من أي وقتٍ مضى، وتقلّد عدد منهم أعلى المناصب في ديار الإسلام، وأخذوا يعملون للتمكين لليهود بأساليب مختلفةٍ تحت أغطيةٍ

شفافةٍ تظهر من خلالها وسائل المكر والخبث جميعها، ويراها أولو الألباب جميعاً.

ونتيجة التعنّت اليهودي، والتعصّب العنصري لبني إسرائيل، والتعالي بالباطل، والادعاءات الفارغة بأنهم شعب الله المختار، وليس عليهم في الأميين سبيل، والأحلام الزائفة بسيطرتهم على العالم حسب وعدٍ مزعوم. وتبعاً لمصالحهم المادية التي عُرفوا بالسعي وراءها، وعبادتهم للمال، ونتيجة اتباعهم لأهوائهم الضالة، ولهذا كله فقد ردّوا شرع الله وكفروا بما جاء من الحق من عند الله، واتبعوا أهواءهم فعميت أبصارهم، وضلّوا عن سواء السبيل، وأضلّوا.

**النصرانية:**

بعد أن نصر الله رسول الله في جزيرة العرب، وهزم الأحزاب، وأذلّ الذين كفروا من أهل الكتاب بعث رسول الله ﷺ، بالرسل والكتب إلى الأمراء والملوك يدعوهم إلى الإسلام، ويُبشّرهم بالخير إن آمنوا، وكان ممن بعث إليهم قيصر الروم ممثل النصرانية يومذاك، وكان في ذلك الوقت في بيت المقدس. وكان يحمل كتاب رسول الله ﷺ، إلى قيصر دحية الكلبي، رضي الله عنه، فلما سلّمه الكتاب، وقد جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد بن عبدالله إلى هرقل عظيم الروم.

سلام على من اتّبع الهدى أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام. أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين. فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾[١].

فلما أخذ قيصر الكتاب قال للترجمان: انظروا لنا أحداً من قومه، أحداً نسأله عنه، وكان أبو سفيان بن حرب بالشام، بغزّة مع رجالٍ من قريشٍ في تجارةٍ زمن هدنة الحديبية (وكان أولها في ذي القعدة سنة ستٍ). قال أبو سفيان: فأتانا رسول قيصر، فانطلق بنا حتى قدمنا عليه في بيت المقدس، فإذا هو جالس، وعليه التاج، وعظماء الروم حوله. فقال لترجمانه: سلهم أيهم أقرب نسباً لهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: أنا أقربهم نسباً إليه، لأنه لم يكن في الركب يومئذٍ من بني عبد مناف غيري. فقال قيصر: ادن مني، ثم أمر بأصحابي، فجُعلوا خلف ظهري، ثم قال لترجمانه: قل لأصحابه: إنما قدمت هذا أمامكم لأسأله عن هذا الرجل الذي يزعم أنه نبيّ، وإنما جعلتكم خلف ظهره لتردّوا

---

(١) آل عمران: ٦٤.

عليه كذباً إن قاله. قال أبو سفيان: فوالله لولا الحياء يومئذٍ أن يردّوا عليّ كذباً لكذبت، ولكني استحيت فصدقت وأنا كاره.

قال قيصر لترجمانه: قل له: كيف نسب هذا الرجل فيكم؟. قلت: هو منا ذو نسبٍ.

قال: قل له: هل قال هذا القول أحد منكم قبله؟. قلت: لا.

قال: قل له: هل كنتم تتهمونه بالكذب على الناس قبل أن يقول ما قال؟. قلت: لا.

قال: قل له: هل كان من آبائه ملك؟. قلت: لا.

قال: قل له: كيف عقله ورأيه؟. قلت: لم نعب عليه عقلاً ولا رأياً قط.

قال: قل له: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟. قلت: بل ضعفاؤهم.

قال: قل له: هل يزيدون أم ينقصون؟. قلت: بل يزيدون.

قال: قل له: فهل يرتدّ أحد منهم سخطةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟. قلت: لا.

قال: قل له: فهل يغدر إذا عاهد؟. قلت: لا،

ونحن الآن منه في ذمّةٍ، لا ندري ما هو فاعل فيها.

قال: قل له: فهل قاتلتموه؟. قلت: نعم.

قال: فكيف حربكم وحربه؟. قلت: دول وسجال. ندل عليه مرةً، ويدال علينا في أخرى.

قال: فما يأمركم به؟. قلت: يأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئاً، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا، ويأمرنا بالصلاة والصدقة، ويأمرنا بالوفاء بالعهد، وأداء الأمانة.

فقال لترجمانه: قل له: إني سألتك عن نسبه فزعمت أنه فيكم ذو نسبٍ، وكذلك الرسل تُبعث في نسب من قومها. وسألتك: هل هذا القول قاله أحد منكم قبله فزعمت أن لا، فلو كان أحد منكم قال هذا القول قبله، لقلت: هو يأتمّ بقولٍ قيل قبله. وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فزعمت أن لا، فقد عرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله تعالى. وسألتك: هل كان من آبائه ملك؟. فقلت: لا. فلو كان من آبائه ملك، لقلت رجل يطلب ملك أبيه. وسألتك عن أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت: ضعفاؤهم، وهم أتباع الرسل. وسألتك: هل يزيدون أم ينقصون؟ فزعمت أنهم يزيدون، وكذلك الإيمان حتى يتمّ. وسألتك: هل يرتدّ أحد منهم

سخطةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فزعمت أن لا ، وكذلك الإيمان حين تُخالط بشاشته القلوب، إذا حصل به انشراح الصدور والفرح به لا يسخطه أحد. وسألتك: هل قاتلتموه؟ قلت: نعم، وإن حربكم وحربه دول وسجال يدال عليكم مرةً وتدالون عليه أخرى، وكذلك الرسل تُبتلى ثم تكون لهم العاقبة. وسألتك: ماذا يأمركم به؟ فزعمت أنه يأمركم بالصلاة، والصدقة، والعفاف، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة. وسألتك: هل يغدر؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر: أي لأنها لا تطلب حظ الدنيا الذي لا يناله طالبه إلا بالغدر. فعلمت أنه نبيّ. وقد كنت أعلم أنه خارج، ولكن لم أظن أنه فيكم، وإن كان ما حدثتني به حقاً فيوشك: أي يقرب، أن يملك موضع قدميّ هاتين.

ثم قال قيصر: ولو أعلم أني أخلص (أي أصل إليه) لتجشّمت: أي تكلّفت مع المشقة لقياه، وفي روايةٍ أخرى: لا أستطيع أن أفعل، إن فعلت ذهب ملكي وقتلني الروم.

ثم قال: ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه.

وقال قيصر لقومه: ياقوم ألستم تعلمون أن بين يدي الساعة نبياً بشّركم به عيسى ابن مريم ترجون أن يجعله الله فيكم؟ قالوا: بلى، قال: فإن الله قد جعله في غيركم،

وهي رحمة الله عزّ وجلّ يضعها حيث يشاء. وأمر بإنزال دحية وإكرامه.

قال أبو سفيان: فلما قضى مقالته وفرغ من الكتاب علت أصوات الذين حوله، وكثر لغطهم: أي أصواتهم التي لا تفهم.

وفي البخاري: كثر عنده الصخب. وزاد البخاري: فلا أدري ما قالوا، وأمر بنا فأُخرجنا، فلما خرجت أنا وأصحابي وخلصنا قلت لهم: لقد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبي كبشة: أي عظم أمره، هذا ملك بني الأصفر يخافه، فما زلت موقناً أنه سيظهر حتى أدخل الله عليّ الإسلام.

وذكر أن ابن أخي قيصر أظهر الغيظ الشديد، وقال لعمه: لقد ابتدأ بنفسه، وسمّاك صاحب الروم، ألق به: يعني الكتاب، فقال له: والله إنك لضعيف الرأي، أترى أرمي بكتاب رجلٍ يأتيه الناموس الأكبر؟ هو حق أن يبدأ بنفسه، ولقد صدق، أنا صاحب الروم، والله مالكي ومالكه. وفي روايةٍ أن أخا قيصر عندما سمع الترجمان يقرأ «من محمدٍ رسول الله إلى قيصر صاحب الروم ضرب في صدر الترجمان ضربةً شديدةً، ونزع الكتاب من يده، وأراد أن يقطعه، فقال له قيصر: ما شأنك؟ فقال: تنظر في كتاب رجلٍ قد بدأ بنفسه قبلك، وسمّاك قيصر صاحب الروم، وما ذكر لك ملكاً؟ فقال له قيصر:

إنك أحمق صغير أو مجنون كبير، أتريد أن تمزّق كتاب رجلٍ قبل أن أنظر فيه؟ ولعمري إن كان رسول الله كما يقولُ لنفسه أحق أن يبدأ بها مني، ولئن سمّاني صاحب الروم لقد صدق، ما أنا إلا صاحبهم وما أملكهم، ولكن الله سخّرهم لي، ولو شاء لسلّطهم عليّ كما سلّط فارس على كسرى فقتلوه.

ولما جاءه ﷺ الخبر عن قيصر قال: (ثبت ملكه) وفي لفظ: (سيكون لهم بقية) ولقد صدق الله ورسوله.

ويروى أن قيصر لما رجع من بيت المقدس إلى محل دار ملكه وهي حمص، أي فإنه لما ظهر على الفرس، وأخرجهم من بلاده نذر أن يأتي بيت المقدس ماشياً شكراً لله، فلما أراد الذهاب إلى بيت المقدس ماشياً بُسط له البُسط وطرح له عليها الرياحين ولا زال يمشي على ذلك إلى أن وصل إلى بيت المقدس. فلما رجع إلى حمص كان له فيها قصر عظيم، فأغلق أبوابه، وأمر منادياً ينادي: ألا إن هرقل قد آمن بمحمدٍ واتبعه، فدخلت عليه الأجناد في سلاحها وطافت بقصره تريد قتله فأرسل إليهم: إني أريد اختبار صلابتكم في دينكم، فقد رضيت، فرضوا عنه.

والذي في البخاري أن قيصر لما سار إلى حمص أذن لعظماء الروم في دسكرةٍ له، ثم أمر بأبوابها فغُلّقت،

ثم اطلع، فقال: يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبيّ؟ فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد أُغلقت، فلما رأى قيصر نفرتهم، وأيس من الإيمان منهم، وقالوا له أتدعونا أن نترك النصرانية ونصير عبيداً لأعرابي، فقال: ردّوهم عليّ، وقال: إني قلت مقالتي أختبر بها شدّتكم على دينكم، فقد رأيت، فسجدوا له ورضوا عنه. وعند ذلك كتب كتاباً، وأرسله مع دحية إلى رسول الله ﷺ، يقول فيه: إني مسلم ولكني مغلوب، وأرسل بهديةٍ. فلما قرئ عليه ﷺ الكتاب قال: كذب عدوّ الله، ليس بمسلم، وقبل ﷺ هديته، وقسّمها بين المسلمين، ومصداق قوله ﷺ أن قيصر بعد هذه القصة بأقلّ من سنتين قاتل المسلمين بغزوة مؤتة.

قال الحافظ ابن حجر، رحمه الله، فعلى هذا إطلاق صاحب الاستيعاب أنه آمن: أي أظهر التصديق، لكنه لم يستمر عليه، ولم يعمل بمقتضاه، بل شحّ بملكه وآثر العافية على العاقبة ـ لعنة الله عليه(١).

لقد ضنّ قيصر بملكه، وآثر الحياة الدنيا فردّ الدعوة الإسلامية وأبى الانقياد والخضوع لله رغم أنه عرف

---

(١) السيرة الحلبية ـ علي بن برهان الدين الحلبي ـ بتصرف.

الحق، وتبيّن له، وأقرّ بذلك غير أن السلطة قد طغت على قلبه، وطمست على عينيه، فوقف في صفّ الأعداء، واستمرّ على ذلك كل من جاء بعده من قياصرة الروم يُحاربون الإسلام، ويعملون على عداوة أهله، يجهّزون الجيوش، ويحزّبون الأحزاب.

وكما خاف قيصر على ملكه خاف البطارقة والرهبان على مواقعهم في الكنيسة التي يُحقّقونْ من ورائها المكاسب، ويُؤمّنون الشهوات، ويجعلون من أنفسهم سدنةً على الكنيسة، وخزنةً للجنّة، يمنحون صكوك الغفران، ويبيعون أجزاء من الجنّة، لذا كان يُعظّمهم الأتباع، ويتزلّفون إليهم، ويُقدّمون لهم المنح والعطايا لذا خافوا على هذا فردّوا شرع الله، وأخافوا قيصر من اتباع الإسلام، بل وقفوا في وجه الدعوة وحالوا دون انتشارها، فأخذ الصراع بين الجانبين يشتدّ ويزيد، والإسلام يتقدّم، والنصرانية تتراجع، وهذا ما كان يزيد من الصراع، ويدفع القيصر وسدنة الكنيسة للمقاومة والدفاع بالجنود، والكذب على الإسلام وأهله وتلفيق الدعايات، وإشاعة الشائعات، في سبيل عدم إسلام أتباع النصرانية، والمقاومة بضراوةٍ، والقتال بعنفٍ، والدفاع عن الكنيسة بشدةٍ لأنهم لم يعرفوا شيئاً عن الإسلام إلا من خلال ما يبثّه البطارقة والرهبان وكلها أكاذيب وأباطيل

خوفاً على مصالحهم وشهواتهم.

واستمرّ الصراع عدة قرونٍ، ثم هدأ القتال، ولكن لم يتوقّف الكذب، ونشر الأباطيل والافتراءات من قبل سدنة الكنيسة، غير أن من يُفكّر من النصارى، ويترك شائعات الرهبان لا يلبث أن يهتدي ويُسلم وجهه لله. وهذا ما يجعل الكنيسة تزيد من الأكاذيب، وتعمل على الحيلولة بين أتباعها وبين التعرّف على الإسلام، خوفاً من اندفاع رعيتها جميعاً نحو الإسلام، دين الفطرة والعلم.

ومع الزمن انصرف بعض المسلمين عن دينهم الذي هو سبب عزّتهم فضعف أمرهم، فانفلت النصارى نحو ديار الإسلام كالوحوش الكاسرة بقيادة رهبانهم فعاثوا الفساد، وأهلكوا الزرع والضرع، وارتكبوا أبشع الجرائم، وأقذر المنكرات الأمر الذي ينمّ عن حقدٍ، لا تعرفه الأديان، وتنكره أدنى المستويات البشرية، حتى ثاب بعض المسلمين إلى رشدهم فجمعوا كلمة من استطاعوا، وألقوا بالصليبيين خارج ديار الإسلام.

غير أن النصرانية استمرّت في أحقادها يدفعها سدنة الكنيسة والرهبان ويشحنها حقداً رجال الدين النصارى حرصاً على مصالحهم. وتعاونوا مع اليهود، بل اتّخذوهم رأساً لمخالبهم، واتّخذ اليهود كذلك النصارى وسيلةً لتحقيق أهدافهم بصفتهم أقلّ عدداً، ولا شوكة لهم سوى

المكر والخداع، والمتاجرة بالنساء والمحرّمات، وهذا ليس غريباً فبعضهم أولياء بعض كما أخبرنا الله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٥١﴾[1].

استمرّ الصراع بين المسلمين من جهةٍ وبين أعداء الإسلام اليهود والنصارى من جهةٍ أخرى وتمكّن الكفّار بالخداع من إحراز السيطرة على أجزاء من ديار الإسلام، فعملوا على السلب والنهب، واغتصاب الأملاك وفي الوقت نفسه عملوا على تطبيق مناهجهم في محاولة بثّ الشكوك في الإسلام، واصطفاء أعوانٍ لهم من أصحاب الشهوات والمصالح وعبدة المال ليكونوا أعواناً لهم في تطبيق مناهجهم على المسلمين، وقد كُتب لهم النجاح لضعف المسلمين، فألغوا الخلافة، وسلّطوا أعوانهم، فتحكّموا بالأمة، وسُيّرت حسب قوانين وضعيةٍ تُخالف شرع الله، وهذا في كثيرٍ من الأمصار الإسلامية. بل تسلّق السلم بعض رجالات اليهود للهدم من الداخل والتعمية على عامة المسلمين. ولا يزال هؤلاء الأعداء يُقاتلون المسلمين بمختلف الوسائل والأساليب ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ

(١) المائدة: ٥١.

﴿حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1].

ولا يرضى اليهود والنصارى بهدنةٍ أو جوارٍ أو سلام - حسب زعمهم - أو زعم أعوانهم، ولكن يريدون القضاء على الإسلام إما بإبادة أهله وإما بردّهم عن دينهم إن استطاعوا، ومهما ادّعى أعوانهم، أو ردّدت وسائل إعلامهم فإنا لا نقبل هذا لأن الله قد أخبرنا بـ ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾[2]، ولكنهم يُحاولون المكر والمخادعة فيُظهرون غير ما يُبطنون، ويعملون على المخاتلة بالكلام اللين، والمجاملة بالحديث العذب كي يصدقهم السامع ويركن إلى كلامهم المغفّل ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾[3]. ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا

---

(١) البقرة: ٢١٧. (٢) البقرة: ١٢٠.

(٣) المائدة: ٤٩.

ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾[1].

## الديانات الأخرى:

هناك ديانات ثانية غير اليهودية والنصرانية تقوم على الشرك والوثنيات وإن كانت في الواقع لا تختلف كثيراً عن اليهود والنصارى فالشرك واحد سواء عُبد فيه البشر أم البقر أم الشجر أم الحجر، والوثنيات واحدة ما دامت العبادة لغير الله وما دامت تُطبّق مناهج غير شرع الله. بل إن اليهود والنصارى قد وقفوا إلى جانب المشركين والوثنيين منذ ظهور الإسلام إلى هذا اليوم، وسيبقون إلى جانبهم حتى تقوم الساعة لأن الكفر ملّة واحدة، ولأن الحقد ضد الإسلام يأكل قلوب الجميع، ولأن بعضهم يتولّى بعضاً، ويقفون جميعاً في الصفّ المعادي للإسلام. ولعلنا نذكر الآن جواب اليهود عندما سألهم مشركو قريشٍ: أديننا أفضل أمن دين محمدٍ؟ فأجابوا: بل دينكم ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ

---

(١) التوبة: ٨.

نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾[1]. ونذكر تحريض النصارى للمغول للهجوم على ديار الإسلام، وإرسال الفتيات الجميلات إلى بلاط جنكيز خان ليقمن بهذه المهمّة. وكانت زوجة هولاكو نصرانيةً وتُحرّضه باستمرار على الإسلام، وكان الرهبان النصارى يجوبون البلاد التي تخضع لسيطرة المغول بكل حريةٍ. وكانت زوجة أبا قاخان بن هولاكو نصرانيةً أيضاً وهي ابنة إمبراطور القسطنطينية.

وعندما علا شأن النصارى بمعرفة طرق الملاحة واحتلال أراضٍ واسعةٍ في أمريكا، وإفريقية وآسيا وقفوا في كل منطقةٍ سيطروا عليها إلى جانب الوثنيين ضدّ المسلمين، وتعاونوا مع المشركين ضدّ أهل الإيمان، وتولّوا أمرهم، وكانوا صفاً واحداً، وليس هذا بالغريب فجميعهم من الكفار، وإن ادعوا أنهم يعبدون الله، وأن ديانتهم سماوية، والواقع أنهم يعبدون بشراً ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾[2]. كما أن الوثنية لا تزال تُعشعش في كنائسهم، فالتماثيل،

---

(١) النساء: ٥١، ٥٢. (٢) التوبة: ٣٠.

والصور، والصلبان تملؤها، فهي إذن تقوم على الشرك والوثنيات كمثيلاتها التي تنتشر في جنوب شرقي آسيا من بوذيةٍ، وهندوسيةٍ، وكونفوشيةٍ، وشنتويةٍ، وتلك التي تنتشر في غابات إفريقية، والبرازيل، وجنوب شرقي آسيا، فجميعها ديانات شركٍ ووثنيةٍ وإن ادّعى اليهود والنصارى أنهم يعبدون الله. وإلا فما هي عبادتهم لله والوقوف إلى جانب المشركين والوثنيين على مدى مراحل التاريخ منذ ظهور الإسلام إلى اليوم وإلى ما بعد اليوم ـ والله أعلم ـ والوقوف بالدعم، والتأييد، والعمل معاً ضد الإسلام، وضد عبادة الله الواحد الأحد.

ويقف اليهود والنصارى ضدّ الإسلام إلى جانب الفرق الضالة والتي تقوم أيضاً على عبادة مخلوقٍ يزعمون أن له طبيعةً خاصةً فيؤلّهونه ويعبدونه من دون الله. فهذه الديانات كلها ـ باستثناء الإسلام ـ، والفرق الضالة جميعها تقف صفاً واحداً ضدّ التوحيد، وضدّ عبادة الله، تردّ شرعه، وتضع مناهج تخالف منهج الله، وإن ادعى بعضها أنه يعبد الله، بل وإن زعمت الفرق أنها تمّت إلى الإسلام بصلةٍ، وهذا ليس بصحيحٍ، وما هذا الزعم إلا لأنها تعيش وسط مجتمعٍ إسلاميٍ فإذا ما ابتعدت عنه أعلنت حقيقتها، وأنكرت صلتها بالإسلام. والحقيقة أنها قامت على أساس الكفر من الأساس، ومن بداية الأمر،

فعبادة مخلوق، وجعل شريك لله كفر صريح، ولا يمكن أن يرجع أصحابه إلى صفاء الإسلام، والوحدانية ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾[1].

ردّ هؤلاء شرع الله، وحاربوه أشدّ المحاربة، وتبدو اليوم واضحةً تمام الوضوح في كل تصرفٍ، وفي كل ساحةٍ يمكن أن يعلو فيه شأن المسلمين، وهذا الردّ حسداً من عند أنفسهم كاليهود، وتبعاً لمصالحهم الدنيوية من الاستكبار، والاقتصاد، والشهوة، والتسلّط عند اليهود، والنصارى، والديانات الوثنية الأخرى، والفرق الضالة. وتقف هذه كلها معاً ضد الإسلام، وتدفع أو تجرّ أتباعها جرّاً بالدعاية، والأكاذيب، والأباطيل، وإذا ما انفلت بعضهم من هذا الإطار، وأعمل عقله، وفكّر وجد نفسه مسلماً، وهذا ما يحدث بين الآونة والأخرى.

(١) الإسراء: ٤٣.

# الفصل الرابع

# النِّفاق

النفاق إظهار شيءٍ وإخفاء غيره. وفي الشريعة إظهار الإسلام وإخفاء الكفر. ولم يكن في المجتمع المكّي عند ظهور الإسلام نفاق، حيث لم يكن للمسلمين قوة يخشاها أحد فيُظهر الإسلام خوفاً من قوة أتباعه، أو في سبيل الحصول على منفعةٍ منهم إذ لم تكن لديهم منافع للآخرين أو وسائل للحصول عليها. ولكن كان المجتمع فريقين: فريق مؤمن أقبل على الإسلام بإيمانٍ صادقٍ ويقينٍ جازم، يُعلن ذلك صراحة بل وباستعلاء، لا يخشى أحَداً إلا الله، لا يخاف طاغيةً ولا يهاب صاحب نفوذٍ، ولا يُبالي بالدنيا وإغراءاتها، ولا يطلب منها إلا ما يُؤمّن حياته، ويحفظ كرامته، لذا كان فوق الدنيا وحُطامها، وهو ما يسعى إليه الفريق الثاني فهو فوقهم. أما الفريق الآخر فهو من أصحاب النفوذ والمال، ومن المتسلّطين وقد رفض الدعوة وآثر الحياة الفانية، وخضع لمغريات الدنيا ومفاتنها فحرص على الزعامة، وجني المال، واستعباد

الناس، ونيل الشهوات، فأعمى ذلك قلبه، وأصمّ أذنيه، وجعل على عينيه غشاوةً، فردّ شرع الله، وأضلّه هواه، وبالتالي أجبر الذين استطاع إخضاعهم على البعد عن الإسلام. ولا يمكن أن يكون مسلم منافقاً يتزلّف للطغاة أو يتودّد لمن بأيديهم الدنيا إذ لا يريد من ذلك شيئاً، أو يُنافق للحصول على شهوةٍ أو متاعٍ حيث يأبى عليه دينه، ولا يُقبل ذلك من مسلم، لأنه يرفض النفاق، ولا يُجيد التزلّف، ولا يُحسن الرياء.

في المدينة المنورة قامت دولة الإسلام، وعلا شأنها فنجم النفاق إذ خشي أهل النفوذ على نفوذهم كعبدالله بن أُبيّ بن سلول، وخاف أهل المراكز على مكانتهم كالجدّ بن قيس فأظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، وكانوا في الحقيقة عوناً لكفار أهل الكتاب ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ (١). ونلاحظ أن الآيات التي تتحدّث عن النفاق والمنافقين هي آيات مدنية على أن الآيات المكية تخلو من ذكر المنافقين لعدم وجودهم في المجتمع المكي في بداية الدعوة. ولم يكن باستطاعة المنافقين تبيان حقيقتهم لقوة المسلمين حيث لم يكن يعرفهم إلا رسول الله ﷺ، ومن أخبره عنهم وهو حذيفة بن اليمان، رضي الله عنه، أو من كان ظاهر النفاق بتصرّفاته وأقواله كعبدالله بن أُبيّ بن سلول.

وعندما ضعف شأن المسلمين لضعف دولتهم كثُر الذين يتظاهرون بالإسلام بل كان بعضهم من أهل الكتاب وخاصةً اليهود والمجوس ليعملوا على التهديم من الداخل، وربما أدخلوا أفكاراً غريبةً على الإسلام تحت أسماء متنوعةٍ كالزهد، والتصوّف، أو التشيّع والدعوة لآل البيت، وربما اتّخذوا نسباً يصل بهم إلى الصحابة أو إلى قرابة رسول الله ﷺ. ومع ذلك لم يستطع أحد منهم الخروج عن الإسلام أو إظهار بعض الأفكار المخالفة وذلك لأنه كانت لا تزال في الإسلام بقية من قوةٍ تُرهب أمثال هؤلاء، كما أن الوعي الإسلامي كان على حالةٍ

---

(١) البقرة: ٨ ـ ١٤.

يمكن أن يُسكت هؤلاء المنافقين الذين يتظاهرون بالإسلام، ويعملون على الهدم من الداخل، ولكن وجد أيضاً من المسلمين المغفّلين الذين أثّرت فيهم مثل هذه الأباطيل فانحرفوا عن جادة الحق.

ولكن عندما تمكّن النصارى من التسلّط على أجزاء واسعةٍ من ديار الإسلام، وتحكّموا بأهلها، وصار لهم نفوذ كبير سواء أكانوا هم أصحاب السلطة مباشرةً أم يمثّلهم في ذلك أعوان لهم من أهل الإقليم، يرون رأيهم فهم كفّار، ولكن يظهرون الإسلام لأنهم يعيشون وسط مجتمع إسلامي، الذي يُشكّل غالبية سكان الإقليم، فإن أظهروا الكفر تخلّت عنهم الرعية فسقطوا، لذا يُظهرون الإسلام ويُنكرون ارتباطهم بالكفار، أو تمثيلهم، أو التقيّد بأفكارهم وتعاليمهم، أو الأخذ بمنهجهم وأسلوب حياتهم، فهم إذن منافقون. وليس النفاق مرتبةً دون الكفر بل العكس فالكفر إنكار وجحود ومآل صاحبه إلى النار دون شكٍ، والكافر يُعلن كفره صراحةً، ويُبدي عداوته بوضوحٍ، ومواقفه معروفة من قبل، والمسلمون يأخذون حذرهم منه، ويتوقّعون منه الهجوم، والغدر، وكل خصومةٍ، أما المنافق فلا يعرفون موقفه إذ يُظهر اللين، والكلام العذب، والتأييد ثم إذا به يغدر فيأتيهم الخطر من حيث لا يتوقّعون، لذا كان المنافق أشدّ نكايةً،

وخطره أشدّ، وربما كان سبب هزيمة المسلمين في الميدان، أو عوناً للأعداء في أحلك الظروف، ومن هنا كانت عقوبته في الآخرة أقسى فهو في الدرك الأسفل من النار ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾[1]. وهناك ثلاثة أنواع من النفاق:

## ١ ـ المنافقون صراحةً:

وهم الذين يردّون شرع الله، ويرفضونه صراحةً، لأن حياة الكافرين قد بهرتهم فانطلقوا وراءها يعملون على ممارستها، وتقليد أهلها، إذ أغرتهم بمعطياتها المادية، وبأسلوبها البهيمي، ورأوا أنهم يستطيعون تأمين شهواتهم بسهولةٍ فيها، ويمكنهم أن يرعوا بأعراض الناس بيسرٍ تحت شعار الحرية التي تُطلقها تلك الحياة. كما يأملون أن يكونوا موقع اختيار الكافرين ليُسلّموهم السلطة ما داموا يأخذون برأيهم، وينهجون منهجهم، ويسيرون على دربهم، وهذا ما يريده الكفّار ممن يسعون له ليُمثّلهم في ديار الإسلام كصاحب مكانةٍ لتطبيق منهجهم في الأقاليم التي يحكمونها. وكلما أظهروا هذا صراحةً، وزاودوا على ذلك كان أملهم أكبر، وحلمهم أوسع في الارتقاء والوصول إلى آخر درجات السلّم. لذا فهم إذا التقوا مع

---

(١) النساء: ١٤٥.

سادتهم الكفار أعلنوا أن الإسلام لا يصلح لحياة اليوم، ولا يتّفق مع الحياة المعاصرة التي بلغت فيها الحضارة شأواً بعيداً، والإسلام يتفق مع الحياة البدوية، والمعيشة البدائية، وقد تطوّرت الأساليب، وتعدّدت الوسائل، وهذا من غير شكٍ كفر بواح.

وهؤلاء المنافقون يعيشون ضمن مجتمعاتٍ إسلامية، ولا يمكنهم إعلان كفرهم خوفاً من قتلهم أو نبذهم على الأقل فيخسرون كل ما يعملون من أجله من زعامةٍ، ويفقدون كل ما يدغدغ أحلامهم من رفعةٍ لذا يدّعون أنهم مسلمون مؤمنون، ومن هو الذي يستطيع أن يُنكر عليهم إسلامهم؟ ومن الذي يمكنه أن يُصنّفهم ضمن الكافرين؟ فمن كفّر مؤمناً فقد كفر و... ولكنهم في الوقت نفسه يقفون ضدّ كل عملٍ إسلاميٍ، وينتقدون كل حكمٍ إسلاميٍ، وينحازون إلى جانب كل فكرٍ مُعادٍ. وربمَا أحياناً يحضرون بعض الصلاة كالجمعة أو العيد زيادةً في المكر والنفاق، كي يبعدوا عن أنفسهم التهمة، ولم يعلموا أن المنافقين أيام رسول الله ﷺ، كانوا يقفون في الصفوف الأولى في الصلاة، إذ المهم هو الإيمان وهو ما يستقرّ في القلب، وما تُصدّقه الجوارح. فلا يكفي القول فإن الله وحده هو الذي يعلم ما في السرائر، كما لا يكفي

عمل الجوارح إن كان الإيمان قولاً مرجرجاً لا يثبت في القلب.

ويصعب على هؤلاء المنافقين أن يُعطوا أنفسهم صفة النفاق على يقينهم أنهم منافقون، فموقفهم يختلف بين لقائهم مع المسلمين ولقائهم مع الكفار من الإعداء ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾[1]. ولكنهم يدعون أنهم يتبعون العلم وأن العلم لا يتعارض مع الدين، ذلك قولهم بأفواههم والله يشهد إنهم لكاذبون، فهم يُطلقون على أنفسهم اسم (العلمانيون)، ويُطلقون على أتباعهم وأعوانهم إشاعة هذا الاسم رغم أن كلمة علمانية تعني (غير الدينية) وذلك أن هذا اللفظ قد شاع في أوربا وانتشر في العصر الذي يُسمّونه عصر النهضة وذلك أن الكنيسة قد وقفت بعنفٍ ضد العلم وكان هناك تعارض كبير وواضح بين النصرانية وبين العلم، وانقسم النصارى إلى قسمين اثنين أولهما أتباع الكنيسة، وثانيهما العلمانيون أي الذين يأخذون بالعلم، أو المتدينون، وغير المتدينين. وهكذا فالعلمانية هي الاتجاه المعادي للدين في الغرب صراحةً.

---

(١) البقرة: ١٤.

لقد سار أعداء الدين في ديار الإسلام على خُطا أوربا النصرانية، وحملوا أفكارها نفسها، على الرغم من أن الإسلام لا تعارض أبداً بينه وبين العلم، ولكن كفراً بالإسلام ومُعاداةً، وإن لم يجرؤوا على ذلك، وأصرّوا على أنه لا فرق بين الإسلام والنصرانية فكلاهما دين، وما ذلك بالجهل بل كفراً وعداوةً، وحملوا اسم العلمانية تقليداً إمعاناً بالكفر. فالذين يُسمّون أنفسهم علمانيين في ديار الإسلام في رأس قائمة النفاق، والمنافقون في الدرك الأسفل من النار لكفرهم الصريح مع ادّعائهم بالإسلام وسط المجتمع الإسلامي نفاقاً.

فالعلمانيون يردّون شرع الله كفراً، ولا يرونه صالحاً كمنهج للحياة، بل يرون صلاحية مناهج الكفار على اختلافها الاقتصادية، والسياسية والاجتماعية.

## ٢ ـ أصحاب المصالح:

من الذين ينتمون إلى الإسلام من لا يعرف شيئاً عن إسلامه فإن كان ما يتّفق مع مصالحه كان مسلماً، ودافع عن دينه كأنه رجل ملتزم مؤمن بكل ما جاء في شرعه، وإن كان ما يتعارض مع مصالحه ردّ الشرع بأساليب متعددةٍ كأن يُفسّر حسب هواه بعض الأحكام بما ينسجم مع مصالحه، ويُدافع عن ذلك، ويعدّ أن هذا هو الإسلام ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ

بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾[1]. والإسلام بالأساس منهج حياةٍ متكامل يشمل نواحي الحياة جميعها من اقتصادٍ، واجتماعٍ، وسياسةٍ، وترتبط هذه النواحي بعضها مع بعضٍ فإذا أُهمل جانب أثّر ذلك على بقية النواحي، كالآلة إذا وضعت فيها قطعة غيارٍ ليست من أنموذجها بل من أنموذج آخر فإنها لا تعمل، ولا يُستفاد منها شيء بل تصبح الآلة كلها غير صالحةٍ، ولعلّ أكثر التشريعات في الأمصار الإسلامية مستوردة من مصادر مختلفةٍ، ثم يُعلن أن النظام لا يتعارض مع الشرع الإسلامي، غير أن السوء يظهر واضحاً، فيزعم المنافقون والذين في قلوبهم مرض أن النظام غير صالحٍ مع الحضارة المعاصرة، ويُعطون أمثلةً بنظام ذلك المصر الذي يضمّ قوانين شتى من مناهج مختلفةٍ. وهذه مغالطات خطيرة.

وهناك جماعات لا مبدأ لهم، ولا فكر، قلوبهم مع كل قائمٍ بالأمر، يُزيّنون رأيه، ويُدافعون عنه، ويدّعون أن ما يسيرُ عليه هو المصلحة، فإن الإسلام لا يمكن تطبيقه

---

(١) البقرة: ٨٥.

في هذه الأوقات إذ نزل لعصورٍ خلت لم تكن فيها هذه المستجدات العلمية والتي يمكن الاستغناء بها عن التشريع الإسلامي، كما جاء لمجتمع بدوي لم تكن فيه المكتسبات الحضارية المعاصرة، لذا لا يصلح الفقه الإسلامي في مثل هذه الأيام، أما في الوقت الذي جاء فيه فقد كان في القمة، وكان معجزةً في تلك الأزمنة أما اليوم فلا... قاتلهم الله أنّى يُؤفكون على هذا النفاق والكفر.

وإذا أراد الله وجاء وضع آخر يناقض الأول تماماً استدار أصحاب المصالح معه، وأصبحوا معه كما كانوا مع سابقه سعياً وراء منافعهم من مراكز ومكاسب، وربما وجدوا لأنفسهم مُبرّرات بادّعاءاتٍ، أنهم كانوا مخطئين، إذ أن هناك أموراً لم يكونوا يعرفونها، أو وقع خطأ، وكلام غير مقبولٍ بصورةٍ عامةٍ ليس فيه سوى إيجاد مُبرّرٍ لسلوكهم أو مخرجٍ لتحوّلهم.

ويندرج مع هذا الصنف بعض الذين يتزيّون بزي العلم أو يحملونه للتكسّب، وربما يُجيدونه حديثاً، ولكن لا يُحسنون العمل به، وقد يعرفونه علماً، ويُتقنونه عبادةً غير أن مصالحهم أو حبّهم المنزلة تجعل على عيونهم غشاوةً فتعمى عن رؤية الباطل فتراه حقاً حيث لا تنظر بمنظار الإيمان بل بمنظار المصلحة،

ويُعرف هؤلاء من خلال سلوكهم، وهناك من يتصيّدهم ليصطاد بهم فيرفعهم ليُغرّر بهم الآخرين، وليجعل لنفسه دعايةً، وليبرّر قيامه، وليحصل على التأييد ما دام قد وُفّق بمن يُفتي له بما يريد، وليُعطي الأحكام بصحة أحكام سيّده. فقد سمعنا من قال لأولياء نعمته أن عهدهم امتداد للعهد الراشدي، ومن شبّه سيّده بأبي بكرٍ الصديق، رضي الله عنه، ومن زعم أن أموات مولاه يرفلون بنعيم الجنة و... ويحصل هؤلاء المنافقون مقابل ذلك على المنصب الرفيع والدعاية الواسعة حتى لا يُسمع بأحدٍ سواهم إلا من كان على شاكلتهم. هؤلاء قد رضوا الدنيّة حيث ليس لديهم عزّة المؤمن فقبلوا أن يكونوا خدماً لسادتهم يُعطونهم الأحكام حسبما يريدون.

لم يرفض هؤلاء شرع الله، ولم يردّوه، وإنما تلاعبوا في الألفاظ، وأوّلوا النصوص حسب هوى أولياء نعمتهم، وهذا هو نفاقهم وهو نفاق عملي وهو أصعب الذنوب، وربما كان أشدّ خطراً في الدنيا من المنافقين في صدر الإسلام، فأولئك كانوا منافقين خوفاً من القتل إن أعلنوا الكفر بعد أن أظهروا الإسلام، أيّ ارتدّوا، فالحكم فيهم القتل، أو خشيةً من السبي إن لم يكونوا مسلمين فيُظهرون الإسلام دون أن يدخل الإيمان إلى قلوبهم،

وذلك خوفاً من العذاب العاجل في الدنيا، ولكن العذاب الأليم ينتظرهم في الآخرة فهم مخلدون في النار إذ أن نفاقهم اعتقادي.

### ٣ ـ المتزلّفون:

وأكثرهم من عامة الناس، فهم كالسوائم، لا يتزلّفون من أجل مناصب عليا إذ ليسوا أهلاً، ولكن إن أُعطوا لا يتمنّعون، وقد يُرفّعون إلى هذه المناصب من غير استحقاقٍ، وذلك عندما يريد الطغاة الهدم والفساد فإن من أبشع أنواع التخريب عندما يتولّى المراتب غير أهلها، ويُسلّم الناس غير اختصاصاتهم، فيفرحون بما أُعطوا ولا يدرون أنهم يسيرون في طريق الخراب.

ويدّعي هؤلاء أنهم يريدون السلامة، ولا يرغبون في الفتنة فينضوون في تنظيم الطاغية ويزاودون أمام قادتهم، ويدّعون الإخلاص في أعمالهم، والصدق في أقوالهم، وأنهم من أعوان النظام العسكري القائم، وأنهم يُضحّون في سبيله، ويفدونه بدمائهم، ولكن إذا التقوا بآخرين زعموا أمامهم أنهم غير مؤمنين بهذه المبادىء المطروحة، ولكنهم يُجاملون خوفاً من أن ينالهم أذىً، وليمكنهم من مساعدة غيرهم، وكي لا يفسحوا المجال للمفسدين أن يحلّوا محلّهم، وحتى لا تكون فتنة والحقيقة أنهم في الفتنة قد سقطوا فهم من ناحيةٍ يتكلّمون أمام أعوان الطغاة

بكلامٍ خاصٍ وأسلوب يبدو عليه التأييد، ويتحدّثون أمام الآخرين بكلام ثانٍ وأسلوب يُباين الأول، وهم في هذا منافقون نفاقاً علمياً، ومن ناحيةٍ ثانيةٍ فهم قد سقطوا في الفتنة لأن الطغاة يتخذون مواقفهم من تأييد هؤلاء بل لم يحتلّوا مواقعهم إلاّ على أكتافهم وأكتاف أمثالهم، وكفى بهذا فتنةً أن يكون أعوان فرعون وهامان وقارون.

وبعد هذا كله يظنّ هؤلاء بأنفسهم الذكاء فهم يستطيعون أن يلعبوا على الطرفين فيُداهنون الطاغية من جهةٍ، ويُحافظون على مواقعهم بين المسلمين بل وعلى صداقتهم معهم، ويعتقدون أنهم لا يخالفون دينهم ويؤدّون واجباتهم، وبذا فهم يحسنون صنعاً، فقلّ أمثالهم في الذكاء والقدرات على الجمع بين النقائض، ولكن هل المنافقون إلا من هذا النوع، وهذا هو عملهم ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾[1].

ويصل الخطأ بكثيرٍ من هؤلاء إلى أنهم يظنّون أنفسهم أن يعملون عند الطاغوت، وأنهم أجراء عنده أو خدم، وهو سيّدهم، وهم تبعاً له وحسب أوامره، ولا

---

(١) الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٥.

يمكنهم مخالفته، وما يُعطى لهم إنما هو منه، ما دام الأمر بيده ـ حسب تصوّرهم ـ وأنهم يخدمونه ولا يخدمون الأُمّة، والمال ماله لا مال الله، والرزق منه وليس من الله، وما يُقدّمه منّةً ومكرمةً، وليس لهم من حقٍ فيما ينالونه. وهذا هو الضلال، إذ يأخذون شرعه، وإن ادّعى أنه لا يخالف شرع الله، وأنه برأي الأمة، والحقيقة أن هؤلاء يردّون شرع الله، فالأمة ليست مخولةً بوضع شرعٍ، ولا مؤهّلةً لذلك حيث لم يعهد الله لأحدٍ بوضع شرعٍ، وليس لأحدٍ أن يدّعي ذلك، فالشرع هو ما أنزل الله، وما نطقَ به رسوله بوحيٍ منه.

فالمنافقون بصورهم المختلفة هو ركائز سيطرة الطواغيت، وقواعد سلطانهم، وعلى أكتافهم يقومون، وبهم يقاتلون، وهم سيوفهم المغمدة أحياناً والمشرعة أحياناً، ويستمدّون من تأييدهم الظلم، وباسمهم يستعبدون الرعيّة. ويدّعي المنافقون بعد هذا أنهم بعيدون عن الطغاة، ولا علاقة لهم بهم. والواقع أنه لولا النفاق لما استقرّ لطاغيةٍ سلطان، ولا توطّد وضع لمستبدّ.

**الانهزاميون:**

هناك أفراد طيّبون حسب الظاهر، ويُظنّ بهم خيراً، ورُبّما كان بعضهم من أهل العلم، وهم فعلاً بعيدون عن الطغاة، ولكن يبدو ـ والله أعلم ـ أن للنفس عندهم حظاً،

ولهذا لم يُقدّمهم الناس، ولم يسر وراءهم الشباب، وهذا ما يحِزّ في نفوسهم حيث يعيشون على الهامش رغم علمهم المعروف، أو وضعهم المرموق، لذا فهم ينتقدون العمل الإسلامي، فيُضخّمون من أخطائه، ويزيدون من هفواته، ويتكلّمون في المحافل باستمرار عن عدم جدوى العمل، ويتحدّثون في المجالس عن ضعف الإسلاميين كأنهم يريدون إبراز شخصياتهم. وهؤلاء وإن لم يكونوا من المنافقين إلا أنهم انهزاميون يُخذّلون الناس عن تأييد الحق بانتقاد أهله، ويدعمون الطغاة بالهجوم على أنصار الإسلام، فهم ردء لأهل الباطل، وإن لم يكونوا من أعوانهم.

والأصل في هؤلاء الانهزاميين ما داموا ممن يُظنّ بهم خيراً أن يكونوا من الناصحين للذين يعملون للإسلام، يُحاولون تسديد خطاهم، يُوجّهونهم إن قصّروا، ويدعمونهم إن احتاجوا، وينصرونهم عند الأزمات بالأخذ على أيديهم بالنصح، وردّهم عن غيّهم إن ساروا في طريقه منِ غير قصدٍ، ودون نيّةٍ سيئة ولكن أخطأوا في الاجتهاد ـ والله أعلم ـ.

# الفصل الخامس

# المُسْتَضعَفُونَ

تتخبط البشرية اليوم في الفوضى، وتتمرّغ في الوحل فهي في شغلٍ شاغلٍ لعلو بعض دولها على بعضٍ، ولسيطرة قويّها على موارد ضعيفها، ولتغلّب صاحب الإمكانات على من لا إمكانات له، ولإجبار صغيرها للدوران في فلك كبيرها، ولجعل بعضها سوقاً لمنتجات بعضها الآخر، وإرغامه على المشتريات من صناعته حتى ولو لم يكن بحاجةٍ ماسةٍ إليها، وذلك من أجل استمرار المعامل على الإنتاج والآلات على الدوران، هذا بالنسبة إلى الدول، وبالنسبة للأفراد فمن أجل تسلّط أفرادٍ على أقاليم لتنفيذ مخططاتٍ، وتحكّم آخرين بالمجتمعات لكمّ أفواه أُناسٍ تُفتح، وقتل أفرادٍ تُعارض، ولطغيان رؤوس أموالٍ على مناطق لامتصاص ثرواتٍ أكبر، وزيادة غنى أولئك المتخمين، ولتحقيق مصالح، وتأمين شهواتٍ. وعاش في ركاب تلك الدول وأحضان أولئك الأشخاص أتباع منافقون يُسبّحون بحمد سادتهم الطواغيت، ويرفضون كل شيءٍ سوى أوامرهم وقوانينهم رغبةً في

الحصول على بعض المنافع والوصول إلى مكاسب كل حسب مستواه أو حسب المكان الذي يضع نفسه فيه إما ظلاً تابعاً أو أجيراً مطيعاً أو خادماً أميناً أو حذاءً مناسباً.

ولهذا كله ردّ الطواغيت والمنافقون والأجراء شرع الله، منهم من ردّه استكباراً في الأرض وعناداً، ومنهم من ردّه اتباعاً للهوى ووفقاً لمصالحه، ومنهم من ردّه حسداً من عند نفسه، وعصبيةً لعقيدته المنحرفة وأفكاره الضالة، ومنهم من ردّه نفاقاً وتبعيةً. ونتيجة هذا الردّ فقد وضع كل مجتمعٍ لنفسه شرعاً حسب هواه يسير بموجبه، يُغيّره بين الحينَ والآخر حينما يتبدّل طاغوت، أو حين يرى رأياً يكون مناسباً لمصالحه بصورةٍ أكبر أو يُحقّق شهواته بشكلٍ أفضل، أو يؤمن سيطرته وفرض سلطانه بوضعٍ أقوى، وهكذا تتبدّل شرائع البشر باستمرار، وتتغيّر قوانينهم بشكلٍ دائم. ويعيش الناس في جحيم بينهم الفقير البائس الذي لا يَجد ما يسدّ رمقه، ولا ما يستر عورته، ولا ما يردّ عن نفسه غائلة البرد، وبينهم المتخم الذي يُبذّر من غير قيدٍ، ويُعطي للفجور دون حدّ، بينهم الضعيف الذي تسحقه آلة الطاغوت، وتطحنه الأحداث وبينهم القويّ المتغطرس الذي يُجرّب مسدسه وصلاحيته في أجسام المستضعفين الذين عتا عليهم الطواغيت.

وعلا الوضيع وارتفع، وسطا اللص وبذّر، وتسلّط النذل وتكبّر، وتحكّم الذليل وتجبّر، وسكت العالم قهراً، وخنع العزيز قسراً، وتغيّرت المفاهيم، وتبدّلت المقاييس، وقُلبت القيم وذلك نتيجة ردّ التشريع الإلهي، والاحتكام إلى قوانين وضعها البشر حسب أهوائهم، وهوى المتسلّطين الذين ساهموا بوضعها أو أشاروا بمبادئها على أتباعهم والمنافقين والمنتفعين، وكي يتخلص الذين ينتمون إلى الإسلام من انتقادات المسلمين الملتزمين اتخذوا مبادىء هيئة الأمم شرعاً لهم من دون الله يُتاجرون بها، ويُهدّد الأقوياء بها الضعفاء، والمتسلّطون المحكومين، وجعلوا من المجتمع الدولي وسيلةً أيضاً للطغيان والتحّكم، وتهديداً لفرض ما يريدون.

وفي هذا الوقت ردّ فيه أصحاب الديانات الوثنية من عنصريةٍ ودوليةٍ شرع الله عصبيةً، واستكباراً، وهوىً، ومصلحةً، وتبعهم في ذلك المنافقون وأصحاب المصالح والشهوات، والذين يُظاهرونهم من الذين ينتمون إلى الإسلام في هذا الوقت بالذات استمسك بالعروة الوثقى فئة من المسلمين إيماناً ويقيناً، فقبلوا شرع الله، والتزموا به حسب استطاعتهم حيث لا يُشكّلون إلاّ جماعةً قليلةً، وليس بيدهم شيء من الأمر، ودعوا الناس بالرجوع

إلى الله، والتفكير بخالقهم، ومصيرهم الذي سيؤلون إليه، وثبتوا على مواقفهم.

ولما كان المؤمنون فئةً قليلةً، ولكن بيدهم الحقّ، ومعهم الحجّة الدامغة، والبيّنة الواضحة وخاصةً بالنسبة إلى الذين ينتمون إلى الإسلام، ولديهم شيء من المعرفة، ويتحكّمون في مجتمعٍ مسلمٍ يمكنه أن يسمع من المؤمنين وينقاد إليهم، بلَ فيما إذا وصلت دعوة المؤمنين سليمةً صافيةً صادقةً مخلصةً إذا وصلت إلى مسامع أصحاب الديانات الأخرى أجابها أصحاب العقول وآمنوا، واستجابوا لنداءات الحق، وأسلموا لله وعندها تنهار عروش الطواغيت، وتتهاوى قصور الفراعنة، وتزول أركان الرأسمالية، وتختفي دعوات الصعاليك الاشتراكيين، ويُحرم رجال المصالح من منافعهم، وينتهي الظلم والاستبداد، ويفقد أهل الشهوات تلذّذهم بالرعي في أعراض الآخرين والتمرّغ في أوحال الرذيلة لذا هبّ هؤلاء جميعاً مذعورين ووجّهوا سهامهم المسمومة إلى المسلمين، وأخذوا بإطلاق النار من غير وعيٍ نفسياً، إعلامياً، وفتكاً، ودعايةً، وزوراً، وكذباً، ومغالطَاتٍ من الجبهات جميعها، ومن الأعداء كلهم.

أما المسلمون الملتزمون فهذا أمر متوقّع لديهم إذ عرفوا هذا مما عاناه رسول الله ﷺ، وأصحابه الكرام من

مشركي العرب، ومن أتباع اليهودية والنصرانية، ومن المنافقين، ومن الذين يُظاهرون الأعداء على المسلمين، ومن المرجفين والذين في قلوبهم مرض، وكما صبر المسلمون الأوائل فإن المسلمين الملتزمين اليوم عندهم استعداد على الصبر، والتحمّل، والمقاومة حتى يأتي نصر الله. وأما المسلمون العاديون والذين عندهم غفلة فلا يعرفون كيد الأعداء، ومكر الكفّار، وليس لديهم خبرة بالمخططات الدولية التي توضع للنيل، ولا بالمؤامرات التي تُحاك ضدّهم، ولا بوسائل الإعلام الموجّهة، ولا بأعوان الأعداء المندسّين بين الصفوف، وهم من بني جلدتنا ولا بأتباع الديانات الذين يتظاهرون، ويعملون على الهدم من الداخل، وقد تمكّنوا في بعض المواقع من الوصول إلى أعلى درجات السلّم، لذا فهؤلاء المغفّلون قد يسقطون في فخّ الأعداء، وهم لا يدرون فيصدّقون ما يُشاع ضدّ إخوانهم المسلمين، ويقبلون ما تُذيعه وسائل الإعلام الموجّهة فلا يرون أنفسهم إلا وهم ينتقدون إخوانهم من غير علمٍ، وينقلون ما يريده الأعداء دون معرفةٍ. ويرى المسلمونُ الملتزمون فجأةً أن سهام إخوانهم قد وُجّهت إليهم، وفُتحت عليهم جبهة داخلية تعدّ من أشد الجبهات خطراً لأنه لم يكن محسوب لها حساباً، وهي من داخل الصف بل لأن الظنّ بها أن تكون إلى جانب المؤمنين فجاءت فجأةً إلى جانب خصومهم.

والواقع أن عامة المسلمين هم مجال الصراع بين المؤمنين حيث يرتبطون معهم بالعقيدة، وهم على درجةٍ من الإيمان أساساً وبين أعداء الإسلام الذين يستغلّونهم لغفلتهم، فيشيعون وينشرون الأكاذيب ضدّ إخوانهم فيُصدّقون. ومع ذلك فهؤلاء المسلمون من العامة يُستغلّون في بداية الأمر، ويُتخذون سلاحاً يُضرب بهم، ويُستعملون دريئةً ووقايةً في أن الأعداء لا يُحاربون الإسلام ولا المسلمين وإنما يُحاربون جماعةً واحدةً هم الجماعة السياسية، فإذا انتهوا منها ـ لا سمح الله ـ اتجهوا إلى العامة وفتحوا عليها النار، لأنهم لا يريدون أن يروا من ينتمي إلى الإسلام أبداً، ولا يريدون أن يُعبد الله أبداً إذ لا يرغبون من أحدٍ أن يقف في وجه أهوائهم وشهواتهم وتسلّطهم، بل يتوقّعون أن يخرج من هؤلاء العامة من ينتبه إلى دينه، ويعي واقعه، ويعرف حقيقته فيرجع إلى الدعوة، وتتضح عنده الرؤية، ويرجع يُقاتل أعداء الله الذين يردّون شرعه.

فاستغلال عامة المسلمين من قبل الأعداء أو إمكانية التفاهم بينهم مرحلة زمنية موقتة، محددة بالقضاء على الجماعة الإسلامية الواعية، أو بانتصارها وتمكّنها من تبصرة العامة لمعرفة طريقهم التي يجب أن يسلكوها، فيكونون إلى جانبها، وتصبح الحرب صراحةً بين

المؤمنين وبين الكافرين، ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً، وتستنير الطريق، وتتوضّح الدرب، ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله، ينصر من يشاء.

وإعلان حرب الكفار على الجماعة الإسلامية الواعية فيه مكر كبير وخبث عظيم يجب أن يدركه المسلمون، وهو تفرقة المسلمين أولاً، وعزل الجانب السياسي من المنهج الإسلامي ثانياً بادعاء أن هذه جماعة سياسية، ولا علاقة للإسلام بالسياسة لأنهم يريدون أن يكون الإسلام محصوراً في جانب العبادات فقط، ولذا تعلو أصوات المارقين بعبارات محاربة تسييس الإسلام، وإبعاد الدين عن السياسة، والمحافظة على صفائه، وهذه التصريحات التي تفوح منها رائحة الكفر، ويمكن الحكم عليها من النظر في التزام أصحابها بالإسلام، وإضافةً إلى هذا فإن القضاء على النخبة الإسلامية الواعية وهي التي تُحرّك المجتمع وتعمل على توعيته هو الهدف الأساسي في هذه الحرب، وهو المخطط السياسي الإجرامي، وهنا يجب أن نُنبّه ونُكرّر دائماً أن الإسلام منهج حياةٍ لمختلف جوانب الحياة: الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، ولا ينحصر في جانبٍ واحدٍ وهو العبادات كما يُريده الأعداء، وعندما نلفظ الدين الإسلامي نقصد منهج الحياة كما أراده الله عبادةً، ومعاملةً، وسلوكاً، واقتصاداً، وسياسةً.

والآن فما هو واجب المسلمين تجاه الواقع الذي يعيشونه، وتجاه المخططات التي توضع للقضاء عليهم، ومحاربتهم جماعةً إثر جماعةٍ بدءاً بالدعاة الواعين لمنهجهم، إلى الذين يلونهم ثم يلونهم مستغلين الأكثر غفلةً والجهلة الذين لا يعرفون من الإسلام سوى الانتماء إليه مع أصحاب المصالح وأتباع الشهوات بحكم انتمائهم الإسلام وادعائهم ذلك للمصلحة وللتغرير بالآخرين ثم هناك المتربّعون على آخر درجات السلم. وهناك واجبات فردية وأخرى جماعية.

## الواجبات الفردية:

ويجب أن يعرف المسلم أن طريق الدعوة شاق وصعب، وعليه أن يتحمّل ويصبر، وأن يحتسب ذلك عند الله، حيث ينال الأجر العظيم، وهل أعظم من الجنة أجراً ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾[١]. ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾[٢]. ويقول رسول الله ﷺ: «حُفّت الجنّة بالمكاره وحُفّت النار

---

(١) البقرة: ٢١٤. (٢) آل عمران: ١٤٢.

بالشهوات»[1]، وعلى المسلم:

### ١ ـ الاستقامة:

الاستقامة واجب على المسلم بأمر من الله تعالى، وهذا قبل كل شيء ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾[2]. ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾[3]. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾[4].

والمسلم محطّ أنظار الآخرين وخاصةً في هذه الأيام التي تتكلم عنه وسائل الإعلام المغرضة وذات الأهداف الخبيثة والموجّهة بمكرٍ وتخطيطٍ دقيقٍ للنيل منه فتتحدّث أنه متطرفٍ، وأنه إرهابي و. . . . فإذا كان المسلم مستقيماً في تصرّفه، مخلصاً في عمله، صادقاً في قوله، دقيقاً في

---

(١) رواه البخاري ومسلم عن طريق أبي هريرة، ورواه أحمد والترمذي عن طريق أنس.

(٢) هود: ١١٢.

(٣) الشورى: ١٥.

(٤) فصلت: ٣٠.

وعده، أميناً على أهله وعلى غيره، بعيداً عن الحسد، مُحبّاً الخير للناس جميعاً، حريصاً على خدمة الآخرين كان محبوباً من مجتمعه جميعاً، يثقون به، ويمنحونه الودّ، فهذا عنوان فكره، ورمز توجّهه، وشعار مبدئه، وعلامة صدق دعوته، وفي الوقت نفسه فهذا ما يُكذّب كل دعايةٍ ضدّه، ويردّ على وسائل ماد تدعيه. كما أن هذا ما يجعل الناس يقبلون على دعوته، ويُصدّقون كل ما يقوله لهم. وهذا شأن الدعاة في كل بيئةٍ وفي كل عصرٍ، وهذا ما يمكن أن نذكره فيما كان عليه قدوتنا رسول الله ﷺ.

لقد كان رسول الله ﷺ، مستقيماً منذ نشأته أي قبل البعثة وهذه الاستقامة جعلت أقرب الناس إليه ممن يعيش معه في بيته (زوجه خديجة، ومولاه زيد بن حارثة، وابن عمه علي بن أبي طالب) يُصدّقون ما قاله، ويُؤمنون بما جاء به، ويشهدون له بالرسالة وهذا ليس بالأمر السهل الذي يُصدّق به هكذا إنه الوحي من عند الله فاطر السماوات والأرض، إله الكون إلا أن معرفتهم باستقامته، ويقينهم بصدقه جعلهم يقبلون منه كل ما يقول، ويشهدون له بالنبوة، وكما قال هرقل لأبي سفيان عندما سأله في بيت المقدس عن رسول الله ﷺ، وصدقه، وجوابه له أننا لم نجرّب عليه كذباً، «لا يمكن أن يدع الكذب على الناس ويكذب على الله».

ولم تستطع قريش عندما أعلنت عداوتها له، ومجاهرتها بمخاصمته أن تتهمه بأية تهمةٍ تنال منه، بل كانت تسمّيه الأمين من قبل البعثة، وكلما يقترح كبير من مجرميها تهمةً لرسول الله ﷺ، يُواجه بالإنكار لها من الآخرين إذ لا يمكن أن تُصدّق تلك التهمة. وهكذا يجب أن يكون رجال الدعوة. ونرى أن الصحابي الجليل عمارة بن حزمٍ، عندما أسلم في بيعة العقبة الثانية، ورجع إلى المدينة، ودعا زوجه النوار بنت مالكٍ لبّت دعوته وأعلنت إسلامها معه، وكذا زيد بن ثابت ولدها الذي يعيش في كنف زوجها لما عرفوا من صدقه وخلقه. وكذا شأن الطفيل بن عمرو الدوسيّ مع أبيه وزوجته إذ لبّيا دعوته، وأسلما معه لما يعرفون عنه، وهكذا الدعاة...

وقد أمر الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم أن يبدأ بالدعوة عشيرته الأقربين ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾[1] فهم أدرى الناس به، وأكثرهم معرفةً به وباستقامته، فلمّا أنكر السادة منهم، جاءهم أني كنت بينكم فلِمَ تتهموني بالكذب أو بغيره ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾[2].

والرجل المستقيم يُحبّه الناس، ويقفون بجانبه،

---

(١) الشعراء: ٢١٤.	(٢) يونس: ١٦.

ويُدافعون عنه، ويقبلون رأيه، بل ويُقبلون عليه، وعلى ما يحمل من أفكار، وقد رأينا المستقيمين يُدافع عنهم خصومهم في أحلك الأوقات، وضدّ رفاقهم بالذات.

## ٢ ـ الالتزام:

على المسلم أن يلتزم بشرع الله، ولا يتساهل بأمرٍ من الأمور، وعلى الداعية أن يتقرّب إلى الله بالنوافل، ويحرص على العمل بالمندوبات، ويترفّع عن صغائر الأمور من المزاح، والأكل بالطرقات، وكل ما يُسقط العدالة الاجتماعية. ولا يصحّ أن يتوانى أبداً في حضور الجماعة. فإذا ما التزم المسلم بهذا كان لقوله تأثير في المجتمع، ولدعوته أثر، وأمكنه ذلك العمل على التغيير.

وكلما تساهل الداعية في جانبٍ قلّ أثره، فالدخان منقصة إضافةً إلى أنه من الخبائث فيجب الابتعاد عنه، وهو مما يُقلّل هيبة صاحبه فكيف يكون إن كان رجل مهمةٍ في الحياة، عليه الدعوة، وعليه الإصلاح، ومن مهمته التغيير؟. والتكاسل في حضور الجماعة تراخٍ في الالتزام وأمور الدين، وهو ليس بالأمر اليسير.

على المسلم أن يبتعد عن كل ما يشين المرء حتى عن الغضب، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا نبيّ الله أوصني، ولا

تكثر عليّ لعلّي أحفظ فقال رسول الله ﷺ: «لا تغضب»[1].

وعن أبي هريرة، رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ، قال: «ليس الشديد بالصُّرَعَة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»[2].

وعن أبي هريرة، أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الشديد من غلب الناس، ولكن الشديد من غلب نفسه».

فالمسلم يجب أن يتأدّب بالقرآن اقتداءً برسول الله ﷺ. ورسول الله ﷺ، كان خلقه القرآن، كما روت أم المؤمنين عائشة بنت الصديق، رضي الله عنهما، وأن يأخذ بتعاليم رسول الله ﷺ، كاملةً في كل مجالات الحياة، في السماحة في البيع والشراء، في المقاضاة. عن جابر بن عبدالله، رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع، سمحاً إذا اشترى، سمحاً إذا قضى، سمحاً إذا اقتضى»[3]. وكذا على المسلم التقيد بأدب الخلاف، قال رسول الله ﷺ: «أربع من كنّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق

---

(١) أخرجه البخاري. (٢) متفق عليه.

(٣) أخرجه البخاري والترمذي.

حتى يدعها، إذا ائتمن خان، وإذا حدّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»[1].

وعلى المسلم العمل على ترسيخ العقيدة في نفسه، ومحاولة معرفة الواقع الذي يعيش فيه بكل جوانبه، وإن كان يشقّ عليه هذا، لأنه على الجماعة أسهل وأكثر شمولاً.

## الواجبات الجماعية:

العمل الفردي ضائع، ومُشتّت، يذهب هدراً، ولا بدّ للجماعة من تنظيم العمل وإدارة السفينة، وتوجيه سيرها، والسفينة التي لا رُبّان لها مصيرها الغرق، أو تتقاذفها الأمواج، وتُحطّمها الرياح، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية. ويجب ألا تُؤدّي الأخطاء التي تقع إلى ردود أفعالٍ تبعدنا عن اقتدائنا برسول الله ﷺ، ومحاولة إيجاد التأويل، والإصرار في البعد عن الفهم، ومن أهم الأعمال الجماعية.

### ١ ـ العمل والاقتداء:

عمل رسول الله ﷺ، قدوة لنا، وقد بدأ بالدعوة السريّة، واللقاء السريّ، في بيت الأرقم بن أبي الأرقم عند الصفا، واستمرّ هذا العمل مدة ثلاث سنواتٍ، وهذا

---

(١) متفق عليه.

العمل هو قمة التنظيم الجماعي، وغاية الدقة، وإضافةً إلى هذا كانت هناك لقاءات بين أفراد الأسرة الواحدة، للاهتمام بالمرأة التي تُناط بها تربية الجيل وتنشئة الأبناء على الإسلام، وللدقة في تلك اللقاءات لم تصل إلينا إلا من خلال ذلك اللقاء الذي كان يتمّ في بيت سعيد بن زيد، ويضمّ إضافةً إليه زوجه فاطمة بنت الخطاب، أخت عمر، ونُعيم بن عبدالله النحّام، وثلاثتهم من بني عدي، ولولا حادثة إسلام عمر، ربما لم نعرف هذا اللقاء.

وللسرية أصولها وقواعدها، إذ لا يمكن التحدّث عنها، ولا الإشارة إليها، ولا التحرّش بأحدٍ خوفاً من المتابعة واكتشاف الأمر، فقد كان يحضر في دار الأرقم بن أبي الأرقم ما يزيد على ثلاثةٍ وستين مسلماً لم يدر أحد خبرهم. ولولا خوف نُعيم بن عبدالله النحّام من بطش ابن عمّه عمر بن الخطاب، برسول الله ﷺ، بعد أن علم مكان ذلك اللقاء، وحضوره ساعتذاك لما أرشده عن اللقاء في بيت أخته فاطمة، وحوّل وجهته، وكان نعيم في طريقه إلى بيت سعيد بن زيد للقاء مع خبّاب بن الأرتّ، الذي كان يقوم مقام الموجّه لهؤلاء الأربعة من بني عدي، وذهاب عمر إلى بيت أخته كان سبباً ظاهراً في هداية الله له، وسبباً لمعرفة تلك اللقاءات الأسرية. ولذا كنا نلاحظ إسلام الإخوة في البيت الواحد، وحماية بعضهم بعضاً من بطش الآباء،

وتعسّف السادة. ومن تلك البيوت بيت سهيل بن عمرو من بني عامر أحد بطون قريشٍ المعروفة وسهيل كان أحد الطغاة قبل إسلامه يوم الفتح فقد أسلم إخوته: حاطب، والسكران، وسليط، وسودة بنت زمعة زوج السكران، وهي التي أصبحت بعد وفاة زوجها، من أمهات المؤمنين، بعد وفاة خديجة، فهي الزوجة الثانية لرسول الله، بعد وفاة الأولى، وهي خديجة، ثم أبناء سهيل بن عمرو بالذات، ولداه: عبدالله، وأبو جندل، وابنتاه: سهلة وأم كلثوم، وصهره أبو حذيفة بن عتبة زوج سهلة، وأبناء عمومته: أبو سبرة بن أبي رهم، زوج ابنته أم كلثوم، وعبدالله بن مخرمة، ومالك بن زمعة مع زوجه ابنة عمه عمرة بنت السعدي. ومن تلك البيوت عثمان بن مظعون وإخوته عبدالله، وقدامة، وولده السائب، وهم من جمح، وسيدا جمح: أمية بن خلف، وأُبي بن خلف وهما من الطغاة المعروفين الذين وقفوا في وجه الدعوة.

## ٢ ـ تثبيت العقيدة:

العقيدة هي العنصر الأساسي بالإسلام، ومع أن المسلم يؤمن إيماناً يقينياً إلا أنه بحاجةٍ إلى التوجيه الدائم والتذكير المستمر ليسمو بإيمانه وليكون دائماً على المستوى الإيماني الرفيع فالإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية والغفلة. وقد بقي رسول الله ﷺ،

مدة ثلاثة عشرة سنةً يعمل على ترسيخ العقيدة في نفوس أصحابه حتى ثبتت، وأصبح الواحد منهم لا يُبالي بما يجري ما دام يعتقد أن ذلك بقضاء الله وقدره، وأنه لا يمكن أن يتمّ أمر إلا بإرادة الله. ومن ناحيةٍ ثانيةٍ فإن المسلم كان ينظر إلى حياته الدنيوية على أنها ليست سوى مرحلةٍ بسيطةٍ جداً يجتازها المرء ليصل إلى الحياة الأبدية حيث هناك السعادة الحقيقية لمن فاز، وهناك الشقاء السرمدي لمن خسر وخاب. ويعتقد المسلم أنه من الفائزين بإذن الله، وبرحمةٍ منه، ما دام مؤمناً. لذا لا يرى المسلم في عذابه على أيدي الكافرين سوى لمحةٍ ليصل إلى النعيم، وكلما اشتدّ عليه العذاب كان تقصيراً في تلك اللمحة، لذلك لم يعد يشعر في قسوة العذاب، ولا يحسّ بالألم الذي يحسّ به الكافر فيما إذا تعرّض للعذاب نفسه، فكانت السياط تلهب جلود المؤمنين الأوائل لكنهم لا يشعرون بوقعها كما يشعر غيرهم، وها هو بلال، رضي الله عنه، يتحمّل ثقل الصخرة الغليظة على صدره، وأثر الرمال الملتهبة من حرّ الشمس تحت ظهره، والسياط تكوي جلده، وهو يقول: أحد، أحد، لا يتفوّه بغير ذلك، وها هو عمير بن الحُمام قبيل معركة بدرٍ، يرى المدة لوصوله إلى الجنة طويلةً، وهي مدة لا تزيد على دقائق، أي إلى أن تلتحم الفئتان وتنوشه سيوف ورماح الأعداء، وكانت في يده تمرات يأكلهن، فقال:

بخٍ بخٍ، أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاءِ، ثم قذف التمرات من يده، وأخذ سيفه، وقاتل حتى استشهد، رضي الله عنه.

وهكذا تكون الروح المعنوية لدى المسلم عاليةً، ولكن من غير تهوُّرٍ، ولا قتلٍ للنفس، ولا إلقائها في التهلكة، وهذه الروح المعنوية هي التي تخيف الأعداء وتجعلهم يجنبون عند لقاء المسلمين لذا يشيعون الشائعات ضدهم، ويخشون مواجهتهم.

ولا يُسمّى المسلم مؤمناً إلا إذا كان راسخ العقيدة، عالماً بأمور دينه ليكون إسلامه عن عبادةٍ ويقينٍ لا عن عادةٍ وتقليد. أما الذين ينتمون انتماءً فهم كثير، ولكنهم كغثاء السيل كما قال رسول الله ﷺ، وذلك لحبّهم الدنيا والسعي وراءها، وكراهيتهم للموت، ولتعظيمهم أعداءهم، ووقوع هيبتهم في قلوبهم، واستصغارهم أنفسهم، وكثرة العقد النفسية عندهم، وخاصةً أولئك المنافقون الذين تحدّثنا عنهم، فهم الذين يرجفون وسط المجتمع الإسلامي، فيُقلّلون من شأنه، ويُضعفون من أمره، ويبثّون الشائعات.

لذا كان من واجب الجماعة مُتمثّلةً في السلطة إن كانت مسلمةً أو في إمرة العمل الإسلامي، ترسيخ العقيدة، وتثبيت دعائمها.

### ٣ ـ معرفة الواقع:

لا بدّ للمسلم من معرفة الواقع الذي يعيش فيه من البيئة المحلية حتى المجتمع الدولي حتى يعلم ما يُبيّت له، فالدنيا قد تكالبت عليه، فجميع الذين يردّون شرع الله ضده من أصحاب المصالح المحليين، وأتباع الشهوات، والمنافقين، وأصحاب الديانات الأخرى يُحاربونه بوسائل الإعلام المختلفة، ويعملون على بثّ الدعاية ضده، وإشاعة الحرب النفسية، والعمل على القضاء عليه بمختلف الأساليب تحت مظلّة الهيئة الدولية، والمجتمع الدولي، والحضارة المعاصرة، باتهامه بمحاولة القضاء على هذه الحضارة بتطبيق الشريعة ـ حسب دعواهم ـ قاتلهم الله أنّى يُؤفكون.

ولما كانت هذه المعرفة تحتاج إلى إمكاناتٍ ضخمةٍ، ومتابعةٍ مستمرةٍ، وتحليلاتٍ علميةٍ، وخوفاً من أن ينزلق الأفراد في متاهات السياسة، ويضيعون وقتهم في المتابعة غير المجدية لذا كان هذا من عمل الجماعة، وذلك أكثر نفعاً، وأفضل معرفةً، وأدقّ نتيجةً، وأحسن تحليلاً، وكانت هي المسؤولة عن وضع المناهج، ونشر المعرفة. وخاصةً أن وسائل الإعلام كلها موجهة ضمن خطةٍ مدروسةٍ وتخطيطٍ خبيثٍ، ومكرٍ شيطانيٍ.

ويجب الانتباه دائماً إلى أنه لا توجد هناك ثوابت في

الحياة السياسية الوضعية فقد يتغيّر الموقف، وقد يتبدّل المركب حسب المصلحة، أو حسب رسم مخططٍ جديدٍ، أو اتفاقاتٍ دوليةٍ، مستجدّةٍ، أو تعاونٍ مرحلي، وهذا ما يوقع الفرد المحلّل في متاهةٍ، أو يُفسد توجيه الجماعة لأفرادها إن اعتمدت هذا، ويكون الخطأ السياسي، يتلوه الاختلاف، وتباين وجهات النظر بين الفئات ذات الهدف الواحد. وربما تضيع الجهود الفردية في التوافه، وبين حزازات النفوس.

وقد أشار القرآن الكريم في سورة الروم إلى ضرورة معرفة الواقع العالمي بذكره أخبار الحروب بين الروم والفرس، وهزيمة الروم أولاً ثم تغلّبهم على الفرس ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾[1].

وعمل رسول الله ﷺ، بذلك، فقد بعث بالكتب والرسل إلى الأمراء والملوك، ليس إلى من يحكم بلاد العرب فحسب، وإنما إلى ملوك العالم المعروفين يومذاك، والذين لهم السيطرة والنفوذ في العالم والذين

---

(١) الروم: ١ ـ ٥.

هم في صراعٍ مستمرٍ على الأرض وهم قيصر الروم، وكسرى الفرس، إضافةً إلى نجاشي الحبشة، ومقوقس مصر، وإن كانوا نظرياً من أتباع قيصر الذي يُمثّل السيطرة النصرانية آنذاك. فيجب معرفة الواقع بشكلٍ صحيحٍ ودقيقٍ.

**٤ ـ التوعية:**

لا بدّ من توعية المجتمع ليعرف الوقائع غير مُشوّهة والأحداث على حقيقتها فيعرف واقعه الذي يعيش فيه، والمخططات التي تُرسم له، والمكائد التي تُعدّ له، فيتصرّف من خلال ذلك، ويتخذ الأساليب المضادة، فتكون التوعية، وتصبح إمكانية التغيير.

وتكون التوعية بشتى الوسائل عن طريق الجماعة وعن طريق الأفراد، وبشكلٍ هادىءٍ وشخصي في كثيرٍ من الأحيان، ومتى تمت التوعية وعمّت أخذ المجتمع يسير في طريق السلامة، ويمكن للأمة أن تؤدّي دورها الذي اختاره الله لها، وهو أخذ الناس إلى طريق الخير وإخراجهم من الظلمات إلى النور، بتطبيق شرع الله، حيث يختفي الطغاة والمنافقون وأصحاب المصالح وأتباع الشهوات.

## كَلِمَة أخِيرَة

لا تتمّ نهضة المستضعفين المسلمين إلا بالالتزام التام بشرع، وإزالة من يعترض ذلك اندفاعاً وراء مصلحته في التسلّط والطغيان، بفضح أسلوبه، وتبيان حقيقته، وإظهار أعوانه.

ولا يكون ذلك إلا بنفض عقد النقص، وترك الانهزامية، والاستعلاء بالإيمان، والبعد عن المنافقين، والتخلّي عن أصحاب المصالح، وعدم وجود تبريرات لأهل الشهوات، ورمي المناهج التي وضعها لنا الأعداء، ووضع مناهج إسلاميةٍ مكانها تعمل على ترسيخ العقيدة، والتعريف الصحيح بواقع العالم اليوم، ونشر التوعية السليمة.

ولا يكون ذلك إلا بالاستعداد قدر الإمكان قوةً، وعلماً، وفكراً، وتجربةً، والاعتماد على الذات والاستغناء عن الأعداء.

ولا يكون ذلك بالدعاء والتواكل والظنّ أن النصر سيكون من الله دون الأخذ بالأسباب بل لا بدّ من بذل الجهد المستطاع ثم التوكل على الله. فتطبيق شرع الله لا

يمكن تحقيقه إلا بجهد البشر في حدود طاقتهم التي منحهم الله إياها. وقد أرشدنا الله إلى ذلك في كتابه العزيز، إذ يكون التغيير في النفس البشرية وبجهدها، وبعدها يُؤيّد الله من يشاء، ويعزّ دينه على أيدي من يشاء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1]. فالتغيير يكون من نفس القوم فإن كان تغييراً صادقاً غيّر الله ـ إن شاء ـ ما حلّ بهم. ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾[2]. فالاستقامة من المخلوق تكون أولاً فيجازيهم الله على استقامتهم إحساناً ويسقيهم ماءً غدقاً. ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾[3].

فالإيمان والتغيير والاستعداد والصدق والإخلاص يكون من البشر أولاً، ثم يأتي النصر والجزاء من الله سبحانه وتعالى.

ويكون الجهد والبذل قدر الاستطاعة من البشر وبعدها يأتي نصر الله. ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[4]. إن نصر الله وحده كافٍ لتغيير كل ما في الكون بكلمة «كن»

---

(١) الرعد: ١١.
(٢) الجن: ١٦.
(٣) الأعراف: ٩٦.
(٤) الأنفال: ٦٢.

فيكون ما أمر، ولكن الله جلّ وعلا يريد أن يكون النصر بجهد البشر فأتبع نصره بكلمة «وبالمؤمنين» ليُؤكّد أن تحقيق النصر يكون بأيدي المؤمنين وجهدهم فإن صدقوا أتاهم نصره، ينصر من يشاء. وآيات كثيرة تدلّ على هذا المعنى وتُؤكّده. فاحتجاب نصر الله اليوم عن عباده المؤمنين إنما يعود عليهم أنفسهم بسبب تقصيرهم بالتزامهم واستعدادهم وإهمال بعضهم شؤون بعض، وموالاة بعضهم للكفّار وأمورٍ كثيرةٍ يعرفها كل مسلم.

ومع وضوح هذا الموضوع غير أن العامة لجهلهم يتساءلون كيف يُهزم المسلمون وقد وعدهم الله بالنصر، وينتصر الكفرة وهم من غير الموحّدين، ويُعادون الله ورسوله والمؤمنين؟ وقد أثّر هذا على عقيدة بعضهم. لقد وعد الله المؤمنين بالنصر إن استقاموا، وصدقوا، وأخلصوا، واستعدّوا، وأخذوا بالأسباب. أما إن لم يفعلوا ذلك فشأنهم وغيرهم واحد، بل إن غير المسلمين قد استعدوا وأخذوا بالأسباب فانتصروا، وتوانى المسلمون فهُزموا. وقد جعل الله الرزق والحصول عليه في الدنيا بالسعي وبذل الجهد، وهذا ما يتمّ للمسلم والكافر، كل حسب جهده واتخاذ الأِسباب والتفكير في الوسائل والأساليب. أما الآخرة فلا ينالها إلا المؤمن ويرتقي في درجاتها حسب إخلاصه وصدقه ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ

زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣٢﴾[1]. فالدنيا إذن تنال بالجهد والتعب، وتنال الآخرة بالإيمان. والأرض مسخّرة للمسلم والكافر، فليس لأحدٍ أن يقول كيف تأتي الدنيا للكفّار، ويحصلون على الرزق، ويرفلون بالنعيم على حين أن المسلمين فقراء، فذلك بالتعب والسعي الحثيث فأولئك يعملون ويجدّون، ويبحثون، ويدرسون، ويُجرّبون، ويُقدّم لهم المسؤولون كل الوسائل والمغريات كي يبحثوا، ويُفكروا، ويُنتجوا، والمسلمون غير ذلك، ومن يفكر بنفسه وينتج يُؤخذ إلى الظلام وغالباً لا يعود، فمن عليه التشجيع والتهيئة ليس منهم بل هو عدوّ تظاهر بالانتماء إليهم، ووُضع على رؤوسهم وربما كان هذا السبب الرئيسي في وضع المسلمين البئيس اليوم. أما الآخرة فهي خالصة للمؤمنين وليس لغيرهم نصيب فيها أبداً، إلا أن يشاء الله.

ويغترّ الكافرون بما يحصلون عليه في الدنيا، وكذا يحسدهم العامة المغفلون غير أن هذا ليس بالخير وإنما هو استدراج ليزدادوا غروراً ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا

---

(١) الأعراف: ٣٢.

نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾[1].

ويقضي العدل المطلق أن يُجازى كل بعمله، فلا يمكن أن يُسوّى بين الطاغية الذي استضعف الناس وأذاقهم الويلات فاغتصب أملاكهم، وانتهك حرماتهم، وأنالهم أصناف العذاب مع كفرٍ وعنتٍ وجبروت وبين أولئك المستضعفين المؤمنين الذين صبروا واحتسبوا ذلك عند الله طاعةً له راجين الأجر والمغفرة ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾[2]. ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾[3].

وربما كان هذا التحدّي للمسلمين بل هذا التكالب عليهم كي يبقوا في نشاطٍ وحركةٍ فلا يصيبهم الخمول والتراخي فيخلدون إلى الأرض ويذهبون بطيباتها في حياتهم الدنيا، ولا تأسن نفوسهم فتفسد وتُفكّر في الشهوات، وتخرج منها الروائح الكريهة، هذا من جانبٍ ومن جانبٍ آخر كي يُختبر المسلمون فيُعرف المؤمنون الصادقون، ويظهر المنافقون ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ

---

(١) آل عمران: ١٧٨. (٢) القصص: ٨٣.

(٣) القلم: ٣٥، ٣٦.

ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾[1]. وبعدها ينال المؤمنون حقاً النصر ـ بإذن الله ـ هذا في الدنيا، وينالون الجزاء الأوفى في الآخرة، وهو جنّة الخلد التي وعد الله بها عباده المتقين.

والحمد لله رب العالمين

(١) آل عمران: ١٤٠ ـ ١٤٣.

# الفَهـرَس

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |